الدكتور

عبده عبد العزيز قلقيلة

لُغَوِيَّات

دار الفكر العربي





دكتــور

عبده عبد العزيز قلقيلة

أستاذ النقد الأدبى والبلاغة

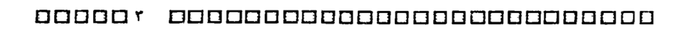
جامعة طنطا

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكــر العربــى

الادارة : ١١ شارع جواد حسنى

ص ب ١٣٠ القاهرة ـ ت : ٣٩٢٥٥٢٣



بسم الله الرحمن الرحيم

وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما

صدق الله العظيم

تقديم

هذا الكتاب (لغويات) صدره هو قسم اللغة فى كتابى (مقالات) وما يأتى بعده من دراسات :

لبعض كتب التراث .

ولعمليات التكلم .

وللأصوات واللهجات .

ولأنواع التعبير .

ولنظريات نشأة اللغة .

ولنظريات التطور اللغوى .

ولأجزاء الجملة .

وللصيغ .

ولمتن اللغة .

ولعوامل نموها .

ولأعضاء النطق .

هذه الموضوعات وغيرها، قد تكلم الناس قديماً وحديثاً فيها ولا يزالون يتكلمون، وإنهم ليكررون ما يقولون .

وفى انتظار ما تأتى به معامل الأصوات فى الدراسات الحديثة من تحويل الكلام المكتوب إلى منطوق .

ومن تجميع أصوات الماضين .

ومن رصد دقيق للآثار الواقعة على أعضاء السمع عند السماع،

فى انتظار ذلك كله وغيره .

نتمنى لعلم اللغة الحديث كل نجاح وتوفيق .

. . .

وقد كان طبيعياً وأنا أؤلف أن أسأل أهل الذكر فيما لا أعرف .

ومن هنا جاءت معايشتى الطويلة لكتب التراث، ومصاحبتى الشديدة للكتب الحديثة .

أجل .

لقد قرأتها وهضمتها وتمثلتها فكان هذا الكتاب، وهو بمثابة فتح شهية عليها فى القديم والحديث .

أسأل الله العظيم : أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يتجاوز لى عن تقصيرى فيه .

أولاً : المنصورة فى ٥ / ٦ / ١٩٧٧ م

وثانياً : طنطا فى ٢٧ / ٦ / ١٩٩٠ م

عبده عبد العزيز قلقيله

أنواع التعبير الإنسانى

للتعبير الإنسانى طرق مختلفة، وهذه الطرق شعبتان :

الشعبة الأولى :

التعبير الطبيعى أى غير الإرادى وغير المقصود عن الانفعالات سواء كانت سارة أو حزينة، لذيذة أو مؤلمة، كالضحك والبكاء، وانبساط الأسارير وانقباضها، واحمرار الوجه واصفراره وما إلى ذلك من ألوان التعبير غير الإرادى مسموعاً كان أو مرئياً .

وهذه الشعبة ليست مقصودة لنا فى دراستنا هنا وإنما مجالها علم النفس .

الشعبة الثانية :

التعبير الإرادى المقصود ويشمل جميع الوسائل التى يعبر بها الإنسان عن معانيه وأحاسيسه . وتتفرع هذه الوسائل من حيث الحاسة التى ندركها بها إلى فرعين هما :

(١) التعبيرات الإرادية البصرية .

(ب) التعبيرات الإرادية السمعية .

فالتعبيرات الإرادية البصرية وهى التى تصل إلى المستقبل عن طريق حاسة البصر، تشمل جميع الإشارات التى تستخدم بقصد الدلالة .

وهذه الإشارات ضربان :

الضرب الأول :

إشارات مساعدة أو نائبة أى تساعد لغة الكلام وتنوب عنها فى بعض الأحيان .

كالحركات التى تصحب كلامنا لتوكيد المعانى أو لتمثيل الحقائق أو لزيادة الإيضاح .

وكالإشارات التى نقتصر عليها أحياناً فى توضيح ما نريد كالإيماء بالرأس دليلا على الموافقة وتحريكه حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض، وكمد الشفتين ووضع السبابة عليهما للأمر بالسكوت وهكذا .

الضرب الثاني :

إشارات أصيلة وهى التى تتكون منها لغة كاملة يُتكلم بها وحدها فى جميع الأحوال .

وقد وُجد هذا النوع من الإشارات لدى بعض الجماعات الإنسانية فى البيئات المتخلفة كما هو الحال عند بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا واستراليا، وبعض القبائل الإفريقية، ويطلق على هذا الضرب من التعبير اسم « لغة الإشارات » .

ونصل إلى :

التعبيرات الإرادية السمعية :

أى التى تصل إلى المستقبل عن طريق حاسة السمع، وهى الأصوات المركبة من مقاطع تتألف منها الكلمات .

وهذا النوع هو مدلول كلمة [لغة] إذا أطلقت، وهو وحده الذى يهمنا فى هذا القسم من كتابنا، ومن خصائصه :

١ ـ أنه إرادى أى مكتسب .

٢ ـ أنه يتمثل فى أصوات مركبة من مقاطع تتألف منها كلمات وجمل .

٣ ـ أنه يُعَبَّر به عن مدركات عقلية أو انفعالات وجدانية أو عنهما معاً .

الإنسان واللغة

تشترك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان فى الشعبة الأولى من شعبتى التعبير، وهى التعبير الطبيعى عن الانفعالات .

فانفعالات الحيوان كالجوع والعطش، والسرور والخوف والاطمئنان، والرضا والغضب، كل ذلك يثير لديه طائفة خاصة من الحركات الفطرية المرئية أو الأصوات التلقائية المسموعة .

كاتساع العينين وضيقهما، ورفع الأذنين وخفضهما وكنباح الكلاب ومواء القطط .

* * *

وليس هذا فقط بل إن بعض الحيوانات تشترك مع الإنسان فى التعبير الإرادى البصرى وهو التعبير بالإشارات .

ويبدو هذا بوضوح فى الحيوانات التى تعيش جماعات كالنحل والنمل والغنم والبقر ... إلخ .

* * *

كتب أحد العلماء كلاماً طيبا تحت عنوان «لغة الحيوان» فقال : ـ إذا وجدت النحلة العاملة زهرة حافلة بالرحيق عادت طائرة إلى الخلية وحومت فى الفضاء وهى ترقص رقصا غريباً خاصاً يدل دلالة واضحة على معنى رسالتها المستعجلة، ويفهم سائر النحل ما تريد، فإذا به ينضم إليها واحدة فى إثر واحدة ثم لا يلبث الجمع أن يندفع كله قاصداً ينبوع هذا الرحيق .

وإذا أراد الحجل أن ينذر قومه بالخطر طار مسرعاً مسافة قصيرة متنقلا من شجرة إلى شجرة وهو يصفق بجناحيه تصفيقاً شديداً .

وأنثى الدببة إذا أرادت أن يسرع إليها ولدها نازلا من فوق شجرة تسلقها ضربت بكفها جذع الشجرة .

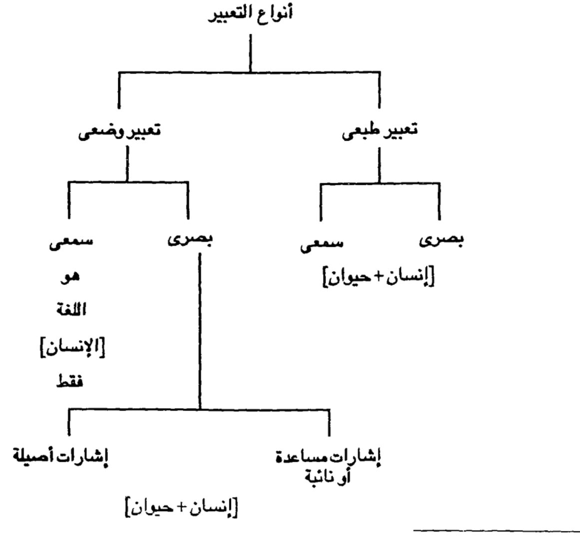
ومن أعجب أسلوب التفاهم بين الحيوان أسلوب التفاهم بين الطائر الذى يسمى الهادى إلى العسل والحيوان المعروف بأبى كعب أو آكل العسل .

الحيوان الأول يحب أكل يرقات النحل حين تكون كالدود والحيوان الآخر يحب العسل . ولما كان الهادى إلى العسل لاقبل له بالتغلب على جماعات النحل الساخطة، ولما كان آكل العسل

قصير الرجلين لا يستطيع أن يقطع المسافات الطويلة بحثاً عن خلايا النحل، فإننا نرى الهادى إلى العسل يطير مطوفاً فى أنحاء الغابة باحثاً عن شجرة فيها خلية نحل. فإذا أسعده الحظ ووجدها ارتد مسرعاً إلى ذلك القابع الصابر وحوّم فوق رأسه قائلا بصوت رفيع عالٍ «شرشر» ويدلف آكل العسل متثاقل الخطى على إثر الطائر المرفرف بجناحيه، ولما كان هذا الحيوان فى وقاء من جلده الكثيف الشعر بحيث لا يضره لسع النحل فإنه يهجم على الخلية ويمزّقها إرباً إرباً، ثم يجتمع هو والطائر على المائدة الشهية .

. . .

أما النوع الأخير من ألوان التعبير وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة فإن الإنسان قد اختص بها دون سائر الفصائل الحيوانية [1] .



(١) علم اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى ص ٦٢ ـ ٦٦ الطبعة الثانية ١٩٤٤ .

نشأة اللغة والنظريات التى قيلت فى هذه النشأة

من التمهيد المفيد فى الدراسات اللغوية أن نلم بنشأة اللغة والنظريات التى قيلت فى هذه النشأة، وأن نحدس التطور اللغوى ونوضح مساراته .

وعن نشأة اللغة نقرر أن الفضل الأول فى هذه النشأة يرجع الى المجتمع الإنسانى، فلولا اجتماع أفراده وحاجتهم إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار والخواطر، لولا ذلك ما وجدت لغة ولا تعبير إرادى .

لكن ما الخلفية التاريخية للتكلم ؟

وبعبارة أخرى :

ما الآراء والنظريات التى قيلت فى نشأة هذا التكلم ؟

أربع نظريات وردت فى هذا الصدد هى [1] :

---

(١) اتكأنا فى بيان نشأة اللغة وتطورها على كتابى فقه اللغة وعلم اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى، وعلى كتاب دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس فلزم التنويه والشكر .

النظرية الأولى

وهى تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى إلهام هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء وهو ما عبر عنه العلماء العرب بكلمة [توقيف] .

أى أن اللغة توقيف من الله تعالى، يعنى أنها كانت جاهزة فيما وراء الطبيعة أو فى عالم الغيب ثم كشف الله عن بصيرة آدم وأطلعه عليها فعلمها وورثها بنيه من بعده .

وليس لهذه النظرية دليل عقلى يؤيدها .

أما دليلها النقلى :

فالقائلون بها من العلماء العرب يعتمدون على قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » .

لكن النص القرآنى لا ينهض حجة قاطعة لهم، إذ يحتمل أن يكون معناه :

ـ كما قال ابن جنى فى كتابه « الخصائص » وذهب إليه كثير من المفسرين ـ

أن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ .

والقائلون بها من الفرنجة يعتمدون على ما ورد بهذا الصدد فى سفر التكوين إذ يقول : «والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ولدواب الحقول ...»

وهذا النص ضد النظرية بل إنه يهدمها فآدم هو الذى وضع الأسماء واخترعها، أى أنه لم يوقف عليها ولم يعلمها .

النظرية الثانية

وهى تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالا .

وهو ما يعبر عنه العلماء العرب بكلمة « اصطلاح » وقد ذهب أصحاب هذه النظرية فى تصوير نشأة اللغة مذاهب لا تعقل، واسمع قول أحدهم :-

إن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة أو أكثر بقصد الإبانة عن الأشياء، فيضعوا لكل منها سمة ولفظا يدل عليه ويغنى عن إحضاره أمام البصر .

وطريقة ذلك أن يقبلوا على شخص ويومئوا إليه قائلين : إنسان. إنسان. فتصبح هذه الكلمة علما عليه، وإذا أرادوا تسمية عينه أو رأسه أو قدمه أشاروا إلى العضو وقالوا : عين . رأس . قدم . ويسيرون على هذه الوتيرة فى أسماء بقية الأشياء . وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلا .

ثم يخطر لجماعة أخرى كلمة أخرى للشىء نفسه مثل كلمة مرد أو man بدل إنسان، وكلمة سر أو head بدل رأس .

وهكذا تنشأ اللغة الفارسية واللغة الإنجليزية . وليس لهذه النظرية سند عقلى أو نقلى أو تاريخى، بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس التى تسير عليها النظم الاجتماعية، فهذه النظم لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقا بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها .

هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف على وسيلة يتفاهم بها الواضعون، وهذه الوسيلة لا يعقل أن تكون اللغة الصوتية، لأن المفروض أن المتواضع عليه هو ما نطق به الإنسان من لغته، ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة لأن المصطلحين قد يكونون بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أى على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فى التعبير عنها .

وأمر ثالث فى ردّ هذه النظرية هو أن أصحابها لم يبينوا كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الحروف، وهى كلمات ليس لها فى الخارج مدلول يشير إليه من يصطلح على التسمية.

النظرية الثالثة

وهى تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زود بها فى الأصل جميع أفراد النوع الإنسانى، وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسى أو معنوى بكلمة خاصة به، كما أن غريزة التعبير الطبيعى عن الانفعالات تحمل الإنسان على القيام بحركات أو أصوات خاصة كلما قامت به حالات انفعالية معينة، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى، فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم، وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة، فأخذت تنقرض شيئاً فشيئا حتى تلاشت، كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الإنسانية القديمة .

ومن أشهر من ذهب هذا المذهب العلامة الألمانى Max Muller [١٨٢٣ ـ ١٩٠٠] والعلامة الفرنسيى Ernest Renan [١٨٢٣ ـ ١٨٩٢] وقد أعتمدا فى تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث فى أصول الكلمات فى اللغات الهندية الأوربية [(١)] .

فقد ظهر أن مفردات هذه اللغات ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك، وأن تلك الأصول تمثل اللغة التى انشعبت منها هذه الفصيلة أى أنها تمثل اللغة الإنسانية فى أقدم عهودها .

وقد تبين من تحليلها أنها تدل على معان كلية، وأنه لا تشابه بين أصواتها وما تدل عليه، ففى دلالتها على معان كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع أو اتفاق كما تقول النظرية الثانية السابقة، وفى عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه برهان قاطع أيضاً على أن اللغة الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة وأصوات الحيوانات والأشياء كما تقول النظرية الرابعة اللاحقة .

---

(١) هى الفصيلة الأولى من فصائل اللغات، والفصيلة الثانية هى الحامية السامية والفصيلة الثالثة هى فصيلة اللغات الطورانية .

والفصيلة الهندية الأوربية تشمل ثمانى طوائف من اللغات هى :ـ

(أ) اللغات الهندية الإيرانية (ب) اللغات الأرمينية (ج) اللغات الإغريقية (د) الألبانية (هـ) اللغات الإيطالية .

(و) اللغات السلتية (ز) اللغات الجرمانية (ح) اللغات البلطيقية السلافية . وانظر علم اللغة للدكتور وافى ص ١٧٩ ـ ٢٠٨ .

وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع واتفاق، وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة وأصوات الحيوانات والأشياء، لم يبق تفسير معقول لنشأة اللغة غير التفسير السابق ذكره، وهو أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان فى الأصل للتعبير عن مدركاته المادية والمعنوية بأصوات مركبة ذات مقاطع، كما زود باستعداد فطرى للتعبير عن انفعالاته بحركات وأصوات غير إرادية .

• • •

وهذه النظرة فاسدة من عدة وجوه :-

١ - أنها تحيلنا على شىء غامض لا يخرج فى أحسن الأحوال عن كونه فرضا وهميا، وهو ما سموه بالغريزة الكلامية .

فالغريزة الكلامية مشكلة أعقد من مشكلة « نشأة اللغة » .

٢ - ما تقرره لا يتقدم بنا ولو خطوة واحدة نحو حل المشكلة الأصلية وهى مشكلة نشأة اللغة، فكل ما تقرره لا يخرج عن أن الإنسان قد تكلم لأنه كان قادراً على ذلك .

وهذا التقرير يشبه إلى حد كبير محاورة دارت بين ثلاثة رفاق، ذهب أحدهم إلى جهة ما، ثم عاد فوجد أحد الرفيقين غير موجود وسأل عنه الثالث فأجاب إنه مضى . ولما سأله : لماذا مضى ؟ قال : لأنه كان قادرا على المضى، وعن غير هذا سأل السائل طبعا، فقدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ الأصوات ليست موضوع بحث ولا موضوع شك، بل إن هذه القدرة قاسم مشترك بين الإنسان وبعض الطيور، ولم ننس بعدُ نداء الهادى إلى العسل لأبى كعب بقوله « شرشر » .

وإنما موضوع البحث هو كيفية استغلال الإنسان الأول لهذه القدرة فى تكوين لغته، ومعرفة الخطة التى وضعها ووصل بها إلى هذه اللغة .

٣ - على أن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها تمثل اللغة الإنسانية الأولى . فهذه الأصول تدل على معان كلية، ومن الواضح أن إدراك المعانى الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها فى فجر الإنسانية .

والأمم البدائية تعد أصدق ممثل للإنسانية الأولى وهى تؤيد ما نقول، فقد أجمع العلماء الذين قاموا بدراسة هذه الأمم فى أمريكا واستراليا وأفريقية وغيرها على ضعف عقلياتها، وعجزها عن إدراك المعانى الكلية .

وقد كان لذلك صدى كبير فى لغاتها، فلا نكاد نجد فى كثير منها لفظا يدل على معنى كلى.

ففى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ يدل على شجرة البلوط الحمراء وآخر يدل على شجرة البلوط السوداء ولكن لا يوجد لفظ يدل على شجرة البلوط أيا كان لونها، أو على مطلق شجرة .

* * *

ولا يوجد بين مفردات لغة السكان الأصليين فى استراليا لفظ يدل على الصفة ؟ فإذا أرادوا وصف شىء لجئوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة فيقولون مثلا : - فلان كشجرة السرو، أو كالنخلة إذا أرادوا وصفه بالطول .

ولذلك؛ يرى المحدثون من علماء اللغة أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها لا تمثل من قريب أو بعيد اللغة الإنسانية الأولى كما يذهب إلى ذلك مكس مولر وريتان Max Muller & Rensn، بل إنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطا كبيراً فى سبيل الرقى والكمال، ولم تصل إليهما الأمم التى وصلت إليها إلا بعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها .

ويذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك إذ يقرر أنها مجرد أصول نظرية وأنها لم تكن فى يوم ما لغة إنسانية .

* * *

النظرية الرابعة

وهى تقرر أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية وهى الأصوات المعبرة عن الانفعالات وأصوات الحيوانات وأصوات مظاهر الطبيعة والأصوات التى تحدثها الأفعال عند وقوعها .

وبعد أن نشأت اللغة الإنسانية من الأصوات الطبيعية سارت فى سبيل الرقى شيئاً فشيئاً تبعاً لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان .

• • •

وقد ذهب إلى هذا الرأى كثير من فلاسفة العصور القديمة، كما ذهب إليه معظم المحدثين من علماء اللغة .

ومن علماء العرب الذين قالوا به ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ فى كتابه الخصائص، وكلامه يدل على قدم هذا الرأى وعلى كثرة القائلين به من قبله، قال :ـ

« وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبى، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل (١) .

وبناء على هذه النظرية يكون الإنسان قد ابتدأ لغته بمحاكاة أصواته الطبيعية التى تعبر عن الانفعالات وبمحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء، وكان يقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشىء الذى يصدر عنه الصوت المحاكى أو عما يتعلق به من أمور .

وقد استعان فى هذه المحاكاة بما وهبه الله من قدرة على التلفظ بأصوات مركبة ذات مقاطع، ومع هذا فقد كانت لغته فى أول الأمر محدودة الألفاظ قليلة التنوع قريبة الشبه بالأصوات المحكية قاصرة عن الدلالة على المقصود دلالة كافية، ولذلك كان لابد لها من مساعد قوى يصحبها، فيوضح مدلولاتها ويعين على إدراك ما تعنيه، وتمثل هذا المساعد فى الإشارات اليدوية والحركات الجسمية .

• • •

وقد استمرت هذه الازدواجية فترة زمنية كان الفهم والتفهيم فيها ناشئاً عن اللغة الكلامية بنسبة أقل، وعن الإشارات والحركات بنسبة أكبر .

• • •

(١) الخصائص ص ٤٤ ـ ٤٥ .

ورويداً رويداً أخذت لغة الكلام تنمو وتتسع وتكسب مع كل جيل أرضية جديدة على حساب لغة الإشارات والحركات حتى جاء وقت صارت اللغة الكلامية فيه مستقلة أو فى إمكانها أن تكون مستقلة عن لغة الإشارات والحركات وصارت الإشارات والحركات عوامل ثانوية .

. . .

وهذه النظرية هى أقرب النظريات إلى الصحة وأكثرها اتفاقاً مع طبائع الأمور وسنن النشوء والتطور، وهى فوق هذا تحل لنا المشكلة التى نحن بصددها، بكشفها النقاب عن الأسلوب الذى اتبعته الجماعات الإنسانية الأولى، وعن المنهج الذى سلكته فى وضع أصوات خاصة لمسميات معينة .

. . .

ولم يقم دليل على خطأ هذه النظرية .

* * *

ومن أدلة صحتها ومعقوليتها :

١ ـ أن المراحل التى تقررها تتفق فى كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوى عند الطفل؛ فقد ثبت أن الطفل فى المرحلة السابقة لمرحلة الكلام يلجأ فى تعبيره الإرادى إلى محاكاة الأصوات الطبيعية، فيحاكى الصوت قاصداً التعبير به عن مصدره أو عن أمر يتصل به. وثبت كذلك أنه فى هذه المرحلة وفى مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتماداً جوهرياً فى توضيح تعبيره الصوتى على الحركات الجسمية .

ومن المسلم به علمياً أن المراحل التى يمر بها الطفل فى مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التى مر بها النوع الإنسانى كله .

٢ ـ ومن الأدلة على صدق وصحة هذه النظرية أيضاً أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية فى مراحلها الأولى يتفق مع ما هو معروف من خصائص اللغات فى الأمم البدائية ففى هذه اللغات تكثر المفردات التى تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه .

ولنقص هذه اللغات وإبهامها وعدم كفايتها لا يجد المتكلمون بها مناصاً من الاستعانة بالإشارات اليدوية والجسمية فى أثناء حديثهم لتكملة ما يفتقر إليه هذا الحديث من عناصر وما يعوزه من دلالة .

وهذه الدوائر تمثل ازدواجية اللغة الإنسانية وتعين على تصور التطور الذى تعرضت له المراحل الأعنية .

(١)

إشارات

كلام

(٢)

إشارات

كلام

(٣)

إشارات

كلام

(٤)

إشارات

كلام

(٥)

إشارات

كلام

تطور اللغة الكلامية
ونظريات هذا التطور

كانت اللغة الكلامية فى أول أمرها ناقصة ثم سارت بالتدريج نحو الكمال كما قلنا .

وقد اختلف الباحثون وهم يوضحون المسالك التى سلكتها حتى وصلت إلى حالتها الراهنة .

. . .

١ ـ بعضهم نظر إلى الموضوع من الناحية الصوتية فحاول أن يكشف عما كانت عليه الأصوات اللغوية فى مبدأ أمرها وعن مراحل تطورها .

وقد ذهب إلى أن اللغة الكلامية قد سارت بهذا الصدد فى ثلاث مراحل هى :

١ ـ مرحلة الصراخ :

فى هذه المرحلة لم يكن فى الأصوات اللغوية أصوات مد ولا أصوات ساكنة وإنما كانت مؤلفة من أصوات مبهمة تشبه أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال كالضحك والبكاء والصراخ وأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء .

. . .

٢ ـ مرحلة المد :

وفيها ظهرت أصوات اللين .

. . .

٣ ـ مرحلة المقاطع :

وفيها ظهرت الأصوات الساكنة .

* * *

ويعتمد أصحاب هذه النظرية فى تأييدها على أمور مستمدة من لغة الطفل، ولغات الأمم البدائية .

أما فيما يتعلق بالطفل فقد ظهر أن أصواته تجتاز المراحل التى ذكرها أصحاب هذه النظرية .

وأما فيما يتعلق بلغات الأمم البدائية فقد لوحظ فى كثير منها أن الأصوات المبهمة وأصوات المد تفوق كثيراً الأصوات الساكنة .

وهذه الأمم ـ لبعدها عن التيارات الحضارية وأسباب النهضة ـ تمثل إلى حد كبير الأساليب اللغوية فى فجر الإنسانية .

• • •

وما أيد به أصحاب هذه النظرية رأيهم غير مسلم لهم . بل إن معظم المحدثين من علماء اللغة يجزمون ببطلانها . والدليل على هذا البطلان أنه لا يوجد من بين اللغات الإنسانية لغة خالية من أصوات اللين أو من الأصوات الساكنة . وأنه من غير المعقول تصور لغة كلامية عارية عن أحد هذين النوعين .

أضف إلى ذلك أن ظهور الأصوات الساكنة فى لغة الإنسان لم يكن ليتوقف على ارتقاء فى لغته أو على تطور صوتى أو على مراحل يمر بها كما يدعى أصحاب هذه النظرية. فهذه الأصوات توجد عند كثير من الحيوانات .

ولم ننس بعدُ الهادى إلى العسل ومناداته صديقه أبا كعب قائلا : « شرشر » ولاحظوا نباح الكلاب ونهيق الحمير وزقزقة العصافير .. إلخ .

٢ ـ وبعضهم نظر إلى الموضوع من ناحية مفردات اللغة ودلالة بعضها على معان كلية وبعضها الآخر على معان جزئية وحاول أن يبين : أى النوعين كان أسبق من الآخر ؟

وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم وانقسموا إلى قسمين :

القسم الأول :

وعلى رأسه مكس مولر Max Muller يرى أن اللغة الكلامية قد بدأت بألفاظ دالة على معان كلية ثم انشعبت عن هذه الألفاظ الكلمات الدالة على المعانى الجزئية .

ودليلهم على أن الأصول المشتركة التى ترجع إليها المفردات فى جميع لغات الفصيلة الهندية الأوربية والتى تمثل فى نظرهم اللغة الإنسانية الأولى هذه الأصول تدل على معان كلية .

وقد ناقشنا هذه الدعوى وبينّا فسادها ونحن ننقد النظرية الثالثة من نظريات نشأة اللغة.

والقسم الثانى :

يرى أن اللغة الإنسانية بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية وهذا الرأى هو المعقول . وتشهد له حالة اللغة عند الطفل وفى الأمم البدائية .

* * *

٣ ـ وبعضهم قاس التطور اللغوى بالمراحل التى ظهر فيها كل من الاسم والصفة والفعل والحرف .

وأشهر نظرية فى هذا الصدد هى التى تقرر أن الصفة هى أول ما ظهر فى اللغة الكلامية وقد تلتها أسماء المعانى وأسماء الذوات ثم ظهرت الأفعال والحروف .

وقد نظر القائلون بهذه النظرية إلى ما هو موجود فى لغة الطفل ولغات الأمم البدائية وإلى ما قرره مكس مولر Max Muller من شيوع الصفات بشكل واضح فى فصيلة اللغات الهندية الأوربية وهى أقدم الفصائل اللغوية .

وقد سبق أن فنَّدنا كلام مكس مولر .

ومن الخطأ القول بتقديم الصفات وأسماء المعانى على أسماء الذوات .

إن هذا القول مجاف لطبائع الأشياء، فلا يمكن أن تقوم الصفة وحدها دون موصوف بها، وإلا كانت كأشربة المتنبى فى وصف شعب بوان وهى أشربة وقفن بلا أوانٍ، وبعبارة منطقية : إن هذا القول معناه وجود محمول بدون موضوع وهو محال .

* * *

٤ ـ وبعض رابع رصد التطور اللغوى من خلال قواعد الصرف ونظم الكلام .

وأشهر نظرية فى هذا المجال هى التى تقسم اللغات الكلامية من هذه الناحية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول

اللغات المتصرفة أو التحليلية

ويمتاز هذا القسم من ناحية المورفولوجيا Morphlogic أى علم البنية بأن كلماته تتغير معانيها بتغير أبنيتها .

ومن ناحية السنتكس Syntaxe أى علم التنظيم بأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة تدل على مختلف العلاقات(١) .

وذلك كاللغة العربية، فإن كلماتها تتغير معانيها بتغير أبنيتها فتقول « عِلْمٌ » للدلالة على المصدر، و (عَلِمَ) للدلالة على الفعل الماضى و (يعلم) للدلاله على الفعل المضارع و (اعلم) للدلالة على فعل الأمر، و (علّم) للدلالة على تعدى الفعل، و (العلوم) للدلالة على الجمع، والمعلوم، للدلالة على ما وقع عليه العلم .. إلخ .

هذا من ناحية الصرف .

وأما من ناحية التنظيم فإن عناصر جملها يتصل بعضها ببعض عن طريق روابط مستقلة تشير إلى مختلف العلاقات فتقول مثلا :

ذهب نبيل وحامد من المنصورة إلى القاهرة . فتأتى بنون بعد لام نبيل للدلالة على أنه أحدث الحدث وهو الذهاب إلى القاهرة .

وبواو بين نبيل وحامد للدلالة على عطف عنصر من عناصر الجملة على عنصر آخر، وبمن للدلالة على الابتداء وبإلى للدلالة على الانتهاء .

وكالعربية بقية اللغات السامية ولغات الفصيلة الهندية الأوربية .

وإنما سميت هذه الطائفة من اللغات بالمتصرفة لتغير أبنيتها بتغير معانيها أو لتغير معانيها بتغير أبنيتها .

وبالتحليلية لما نتخذه إزاء الجملة من تحليل أجزائها وربط بعضها ببعض بروابط تدل على العلاقات القائمة بينها .

---

(١) يرى دكتور كمال بشر أن الاصطلاح الانجليزى Syntaxe أجدر أن يسمى علم التركيب بدلا من علم التنظيم، ذلك أن دراسة التراكيب لا تقتصر على النظر فى ترتيب الكلمات وتحويلها إلى جمل وإنما تتعدى ذلك إلى أمور أخرى لا تقل أهمية عن ترتيب الكلمات، ومن هذه الأمور البحث فى قوانين المطابقة concoid أو عدم المطابقة من حيث العدد [الإفراد والتثنية والجمع] ومن حيث النوع [التذكير والتأنيث] .

ومن وظيفة علم التركيب كذلك البحث فى الإعـراب وقوانينه . وانظر دراسات فى علم اللغة القسم الأول ص ٢٩ طبعة ٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ .

القسم الثانى

اللغات اللصقية أو الوصلية

ويمتاز هذا القسم من ناحيتى المورفولوجيا والسنتكس بأن تغير معنى الأصل (البنية) وعلاقته بما عداه من أجزاء الجملة (التنظيم) يشار إليهما بحروف تلصق به، وتوضع هذه الحروف أحياناً قبل الأصل فتسمى سابقة وأحياناً بعده فتسمى لاحقة .

وبعض هذه الحروف ليست له دلالة مستقلة وبعضها كان ذا دلالة خاصة ثم فقد هذه الدلالة الخاصة وأصبح لايستخدم إلا مساعداً للدلالة على معنى الأصل الذى يلصق به أو للإشارة إلى علاقته بغيره .

ومن أشهر لغات هذه الفصيلة اللغة اليابانية واللغة التركية وبعض لغات الأمم البدائية .

وقد سميت هذه اللغات باللصقية أو الوصلية للطريقة التى تتبعها حيال الأصل، إذ تلصق به حروفاً زائدة عن حروفه الأصلية لتوضيح معناه أو للإشارة إلى علاقته بما عداه .

القسم الثالث

اللغات غير المتصرفة أو العازلة

ويمتاز هذا القسم من ناحية المورفولوجيا بأن كلماته غير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالأصل، فكل كلمة تلازم صورة واحدة وتدل على معنى ثابت لايتغير .

ويمتاز من ناحية السنتكس بعدم وجود روابط بين أجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كل منها وعلاقته بما عداه، بل توضع هذه الأجزاء بعضها بجانب بعض، وتستفاد وظائفها وعلاقتها من ترتيبها أو من سياق الكلام .

ومن أمثلة هذا القسم اللغة الصينية وكثير من لغات الأمم البدائية .

وسميت هذه اللغات بغير المتصرفة لأن كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معناها .

وبالعازلة لأنها تعزل أجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تصرح بما يربطها من علاقات .

• • •

ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية فى أول أمرها كانت من النوع الثالث (غير المتصرفة) ثم ارتقت إلى النوع الثانى (اللصقية) ولم تصل إلى حالة النوع الأول (اللغات المتصرفة) إلا فى نهاية الشوط مع ملاحظة أن بعض اللغات قد وقفت فى نموها فلم تتجاوز المرحلة الأولى كاللغة الصينية، أو لم تتجاوز المرحلة الثانية كاليابانية والتركية .

وهم يستدلون على صحة نظريتهم بأدلة مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم البدائية .

ولكن أدلتها لا تقطع بصحتها وأكثر من ذلك قامت أدلة كثيرة على خطئها .

من ذلك أن الأساليب الثلاثة التى تقول بها وهى التصرف واللصق والعزل، هذه الأساليب توجد مجتمعة فى كل لغة كلامية، ومن المتعذر حقا وجود لغة خالية من أحدها .

فاللغة العربية كما يوجد بها مظاهر من أسلوب التصرف والتحليل، يوجد بها مظاهر من الأسلوبين الآخرين، فهى تسير على طريق اللصق بالحروف اللاحقة والسابقة، كجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم والتعدى بالهمزة [محمد : محمدون . فاطمة : فاطمات . صديقى ذهب عنه حزنه إلى غير رجعة : أذهب الله حزن صديقى إلى غير رجعة] .

وتسير كذلك على طريقة العزل فى كثير من التراكيب فبعض الجمل الاسمية والجمل الفعلية لا ترتبط عناصرها بأى رابط ملفوظ، وإنما تفهم العلاقة بينها من ترتيبها أو من السياق مثل :

محمد رسول، ونصح موسى عيسى .

وكالعربية فى هذا جميع اللغات الإنسانية .

• • •

فلسنا إذن بصدد فصائل لغوية متميزة، بل بصدد أساليب مستخدمة فى جميع اللغات التى عرفتها البشرية .

اللغة العربية

قال ابن جنى : ـ حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وسواء قلنا بالتوقيف أم الاصطلاح، فإنها لم توضع كلها في وقت واحد بل جاءت متتابعة متلاحقة [١] .

وإذا كان هذا الكلام لابن جنى ينطبق على أية لغة، فإننا نريد أن نعرف شيئاً ولو قليلا عن طفولة اللغة العربية، وشيئاً ولو قليلا كذلك عن نشأتها ونموها وتطورها إلى أن صارت لغة نموذجية أدبية نزل بها القرآن الكريم على النبى العربى محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى الحق أننا في بحثنا عن طفولة اللغة العربية نجد أنفسنا فى ظلام حالك فليس بين أيدينا نصوص لها ترجع إلى عهودها الأولى؛ وأقدم ما عندنا منها لا يجاوز القرن الثالث الميلادى .

وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة قبل المسيحية، أو أنها أحدث من شقيقاتها الساميات، بل إن الباحثين يؤكدون أن اللغة العربية المألوفة لنا، قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى السامية الأم أكثر مما احتفظت به الساميات البنات .

ففيها من الأصوات ما ليس فى غيرها من الساميات .

وفيها ظاهرة الإعراب كاملة .

وفيها صيغ كثيرة لجموع التكسير وغير ذلك من الظواهر التى يؤكد الدارسون أنها كانت سائدة فى السامية الأصل، والتى انحدرت منها فيما بعد كل الساميات الفروع وهى الأشورية والعبرية والفينيقية والآرامية واليمنية القديمة والحبشية السامية لا الحبشية الأمهرية .

وهذا معناه أن لغة سامية كالعبرية مثلا قد مرت بها مراحل من التطور والتغير أبعدتها عن السامية الأولى أكثر مما مر باللغة العربية التى انعزلت فى شبه الجزيرة العربية واقتصر تطورها أو تغيرها على ظواهر قليلة بالنسبة لشقيقاتها .

* * *

(١) المزهر جـ ١ ص ٧ ، ٥٥ .

ولعل السبب فى عدم وصول نصوص عربية يرجع تاريخها إلى عصور قديمة هو شيوع الأمية فى شبه الجزيرة العربية، فالعرب قبل المسيحية وبعدها إلى البعثة المحمدية لم يكونوا أهل قراءة وكتابة .

ومن هنا جاءت المفارقة بين العربية واللغات السامية الأخرى فى هذه الناحية .

فبينما نجد من النصوص العبرية ما يغطى القرون الثمانية قبل الميلاد ممثلة فى التوراة وكتب الأنبياء وغيرها من النصوص الدينية كالعهد القديم لانجد من النصوص العربية المعتمدة ما يتجاوز قرنين قبل الإسلام وهى النصوص المكونة للأدب الجاهلى .

وإذن فنحن نجهل جهلا تاماً طفولة اللغة العربية .

ويحاول الدارسون جاهدين أن يستشفوا شيئاً عنها بالدراسة المقارنة لشقيقاتها الساميات وهى لغات غنية بالنصوص الأدبية (١) .

• • •

وأقصى ما أمكن الوصول إليه أن لغتنا العربية كانت فى قبائل من ولد سام بن نوح، وهم عاد وثمود وجرهم الأولى ووبار وغيرهم . ثم انتقلت إلى بنى قحطان وكانوا يتكلمون باللسان الكلدانى لسان سكان العراق الأصليين .

وأول من تحول لسانه إلى العربية يعرب بن قحطان .

وبعد أن نشأت منها الحميرية لغة أهل اليمن انتقلت إلى أولاد إسماعيل بالحجاز، ولم تكن لغة إسماعيل عربية، فقد كان عبرانياً على لسان أبيه إبراهيم . ثم انخرط فى شعوب العرب بمجاورته لهم ومصاهرته لجرهم الثانية حين نزل مكة فنطق بلسانهم وورثه عنه أبناؤه، فأخذوا يصوغون الكلام بعضه من بعض ويضعون الأسماء بإزاء مسمياتها، وما زال الأمر كذلك إلى أن صارت اللغة العربية فى متين نسجها وكامل حسنها (٢).

• • •

---

(١) اللهجات العربية . د. إبراهيم أنيس ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) دراسات فى اللغة العربية لمحمد الخضر حسين ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .

والدليل على عنايتهم بها وحرصهم على رقيها ما وصل إلينا من أدبهم الذى كانوا يقولونه أو يتناشدونه فى أسواقهم، وقد كانت ثمانية أشهرها .

عكاظ :

وهى السوق العامة للعرب، وكانت تعقد حول مكة طيلة شهر ذى القعدة .

أما ذو المجاز : فكان يعقد فى المكان المسمى به فى منى أوائل شهر ذى الحجة .

وأما المجنة : فكانت تقع بين عكاظ وذى المجاز وتستمر أسبوعاً واحداً .

• • •

وقد اقتضت عناية العرب بلغتهم واهتمامهم بأدبهم أن تكون معجزة محمد نبيهم معجزة كلامية بلاغية، هى القرآن الكريم كتاب الإسلام والعربية .

• • •

الجملة العربية وأجزاؤها

الجملة العربية هى أقل قدر من الكلام يفيد معنى تاماً مستقلا بنفسه .

وهى تتكون من جزأين أساسيين يسميهما المناطقة الموضوع والمحمول .

فقولنا مثلاً : محمد ذكى . محمد موضوع أى أنه وضع بإزاء العقل ليصدر عليه حكما أو ليحمل عليه صفة، وهذه الصفة هى أنه ذكى فذكى هو المحمول .

* * *

ويسميها البلاغيون المسند إليه وهو الموضوع عند المناطقة والمسند وهو المحمول عندهم .

* * *

أما النحويون فالجملة عندهم نوعان :

اسمية :

وهى عبارة عن مبتدأ وخبر مثل : الكتاب مفيد .

فالكتاب : مبتدأ .

وهو الموضوع عند المناطقة والمسند إليه عند البلاغيين .

ومفيد : خبر .

وهو المحمول عند المناطقة والمسند عند البلاغيين .

وفعلية :

وهى عبارة عن فعل وفاعل مثل : نجح محمد .

والفعل هنا هو المسند وهو المحمول .

والفاعل هو المسند إليه وهو الموضوع .

* * *

وليس حتما أن ينطق المتكلم بجزأىِ الجملة لتتم الفائدة منها؛ فإن هذه الفائدة تتحقق بجزء ملفوظ وجزء ملحوظ أى مقدر، فإذا سألت الأول مكرراً عمن شاركه فى الأولية فأجاب : محمد لحظت أنت الجزء الثانى ففهمت .

وبهذا وغيره كانت اللغة العربية موجزة بل إنها لموجزة حتى لو اشتملت الجملة فيها على الجزأين المكونين لها، وذلك بالقياس إلى غيرها من اللغات الأخرى، فبعض اللغات تشترط فى الجملة لتمام فائدتها أن تشتمل على مسند ومسند إليه ثم على فعل من أفعال الكينونة يربط بينهما .

ففى الإنجليزية تقول It is a book : أى هو يكون كتاباً .

أما فى العربية فيكفى أن تقول : هو كتاب .

* * *

والكلمات التى تأتى فى الجملة العربية زائدة عن هذين الجزأين الرئيسيين كالمفعولات بأنواعها والحال والتمييز والظرف والتوابع ونحوها يسميها البلاغيون متعلقات الإسناد أو القيود ويسميها النحويون فضلات أو توابع .

* * *

والجملة طالت أو قصرت يُعمِل فيها المتكلم حسهُ اللغوى أو ملكته الأدبية حتى تخرج كلاماً مفهوماً يؤدى وظيفته الاجتماعية فى الحياة اليومية، أو أدباً خالداً ينضاف إلى تراث العربية .

* * *

وقد ذهب اللغويون والنحاة الأقدمون إلى أن الكلام يتكون من ثلاثة عناصر هى الاسم والفعل والحرف ولكنهم اختلفوا بل اضطربوا وهم يحددون مفاهيم هذا التقسيم .

أما الإسم :

فقد عرفوه بأنه مادل على معنى وليس الزمن جزءًا منه .

وقد اعترض عليهم بأسماء مثل الليلة واليوم والأسبوع والشهر والسنة والقرن، وبالمصادر وهى تدل على الحدث فى إطار من الزمن .

ولما جوبه النحويون بهذه الاعتراضات وغيرها أخذوا يحورون تعريفهم ويفسرونه تفسيراً خاصاً بهم ينسجم مع فهمهم للاسم .

على أن منهم من اكتفى فى تعريف الاسم بالتمثيل له وهو سيبويه الذى اقتصر على قوله: والاسم مثل فرس ورجل .

وأما الفعل :

فقد عرفوه بأنه ما يدل على حدث فى زمن معين هو الماضى أو الحاضر أو المستقبل .

* * *

وحين نمعن النظر فى مسألة الزمن نجد أن الماضى يلتقى بالمستقبل فى هذه اللحظة الزمنية الخاطفة التى نسميها الحاضر، أى أن الحاضر ما هو إلا نقطة اتصال ليس من السهل تحديدها .

فكلمة (الآن) غامضة، ونحن نقبلها على غموضها، ووظيفتها تقتصر على كونها وصلة بين أحداث انتهت وأحداث لم تأت، قبلها الماضى وبعدها المستقبل .

لكن الأحداث الماضية تختلف أزمنتها قرباً من الحاضر وبعداً عنه .

فمنها ما يسبق هذا الماضى، ومنها ما يليه .

وكذلك الأحداث المستقبلة .

فثمة أحداث مستقبلة يمكن أن يكون قبلها أحداث، ويمكن أن يكون بعدها أحداث، وكلها فى الزمن الآتى أى المستقبل .

ومن هنا جاء هذا التقسيم الزمنى المسمى بالتقسيم السباعى عند كثير من المحدثين وهو :

قبل الماضى ← الماضى ← بعد الماضى .

الحاضر

قبل المستقبل ← المستقبل ← بعد المستقبل

* * *

أما النحويون العرب فقد اكتفوا بالأزمنة الأساسية وهى :

الماضى . مطلق ماض .

والحاضر مطلق حاضر

والمستقبل مطلق مستقبل .

وبعض متكلميهم أنكر وجود الزمن الحاضر .

يقول ابن يعيش : « وقد أنكر بعض المتكلمين فعل الحال وقال : إن كان قد وجد فيكون ماضياً، وإلا، فهو مستقبل، وليس ثم ثالث » ويمضى ابن يعيش فيقول : « والحق ما ذكرناه، وإن لطف زمن الحال » [١].

* * *

وكان علاج النحاة للحروف علاجا عجباً، فهم يجردونها من المعانى المستقلة .

الاسم . مادل على ذات . إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد أو أى شىء آخر .

والفعل : مادل على حدث فى زمن .

أما الحرف فهو مالا معنى لـه فى نفسه، وإنما يدل على معناه بواسطة غيره من اسم أو فعل.

لكن ذلك لم يسلم لهم؛ فقد وردت شواهد تدل على أن للحرف معنى فى ذاته مثل قول مزاحم بن الحارث العقيلى :

غدت من عليـــــه بعد ما تم ظمؤها

تصل وعن قيض بزيزاء مجهـــل

أى غدت من فوقه، فالحرف (على) فى (عليه) معناه (فوق) ومثل قول قطرى بن الفجاءة :

فلقـــد أرانى للرماح دريئـــة

من عن يمينى تارة وأمامـــى

أى من ناحية يمينى، فجاءت (عن) بمعنى ناحية .

* * *

ولما رأوا ذلك قالوا : إن من الحروف ما يستعمل استعمال الأسماء فى بعض الأحيان .

أى أن فكرة الحرفية غير واضحة فى أذهان النحاة أو فى أذهان بعضهم على الأقل .

وقد رأينا أن تعاريفهم للأسماء والأفعال ليست جامعة وليست مانعة كما يقول المناطقة، فلا يستوعب التعريف كل آحاد المعرف، ثم هو لا يمنع من دخول غيره فيه أو معه .

---

(١) ابن يعيش جـ ٧ ص ٤ .

ولعله من هنا كان وضعهم علامات للأسماء من كونها مضافة ومن قبولها للتنوين أو لأداة التعريف (أل) ، وعلامات للأفعال من سبق بعضها بالسين أو سوف، ومن إمكان اتصال بعضها بضمائر الرفع وهكذا .

• • •

وينبه الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه (من أسرار اللغة)[1] إلى أن النحاة المحدثين قد اهتدوا إلى تقسيم رباعى للكلام هو :

١ ـ الاسم

٢ ـ الضمير

٣ ـ الفعل

٤ ـ الأداة

وهو يرى أن هذا التقسيم قد يكون أدق، والأمر عندى بالعكس، فالاسم ضمير والضمير اسم فى دلالة كل منهما على مسماه .

وبعبارة أوضح . أنا أحمد وأنت محمود وهو محمد .

أما الأداة فيمكن أن تكون لفظة مرادفة للحرف .

---

(١) ص ٢٨٢ ـ ٢٩٥ طبعة ٤ سنة ١٩٧٢ .

من عوامل نمو اللغة

التعريب

عوامل نمو اللغة كثيرة منها القياس، والاشتقاق، والقلب، والإبدال والنحت والارتجال (١) .

ومن عوامل نمو اللغة كذلك التعريب .

وهو ظاهرة من ظواهر التقاء اللغات وتأثيرها بعضها فى بعض، ولهذا التأثير مجالاته المعروفة فهو إما أن يكون فى أصوات الحروف، أو فى المفردات، أو فى الصيغ، أو فى تركيب الجمل .

• • •

والتعريب الذى بحثه علماؤنا العرب وفسروا به هذه الظاهرة مجاله الكلمة المفردة كما هى أحيانا، وبعد تغيير أحد حروفها أو تحوير وزنها أحيانا أخرى

قال السيوطى فى المزهر .ـ المعرَّب هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان فى غير لغتها .

وقال الجوهرى فى الصحاح . تعريب الاسم الأعجمى أن تتفوه به العرب على منهاجها .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام :ـ

أما لغات العرب فى القرآن، فإن الناس اختلفوا فيها، فروى عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم، أنهم قالوا فى أحرف كثيرة :ـ

---

(١) انظر فى هذه العوامل وفى الموضوع كله هذه المراجع :ـ

سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى، والجامع الكبير لابن الأثير، وفقه اللغة للثعالبى، والمزهر للسيوطى، والمدخل فى اللغة للامام أبى عمر المطرز، وأساس البلاغة للزمخشرى، وشفاء الغليل فى ما فى كلام العرب عن الدخيل لشهاب الدين أحمد الخفاجى، ومن أسرار اللغة، واللهجات العربية ودلالة الألفاظ للدكتور إبراهيم أنيس، وعلم اللغة وفقه اللغة، واللغة والمجتمع للدكتور على عبد الواحد وافى والاشتقاق لعبد الله أمين، وفى فقه اللغة لمحمد الزفزاف وغرائب اللغة العربية للأب رفائيل نخله اليسوعى، وأزاهير الفصحى فى دقائق اللغة لعباس أبو السعود، والمعرب من الكلام الأعجمى للجواليقى، وفقه اللغة وخصائص العربية لمحمد المبارك، ودراسات فى فقه اللغة للدكتور صبحى الصالح، واللغة العربية كائن حى لجرجى زيدان، والبحث اللغوى عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر للدكتور أحمد مختار عمر، وكلام العرب للدكتور حسن ظاظا .

إنها بلغات العجم .

من ذلك :ـ

طه، واليم، والربانيون .

يقال : إنها بالسريانية .

والصراط، والقسطاس، والفردوس .

يقال : إنها بالرومية .

ومشكاة، وكفلين .

يقال : إنها بالحبشية .

وهيت لك .

يقال : إنها بالحورانية .

ثم قال : وزعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه كلام أعجمى لقوله تعالى : « قرآنا عربياً » وقوله « بلسان عربى مبين » قال أبو عبيد : والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الحروف :(الكلمات) أصولها أعجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب .

فمن قال : إنها عربية فهو صادق .

ومن قال : إنها عجمية فهو صادق .

وذكر الجواليقى فى المعرب مثله وقال : ـ فهى عجمية باعتبار الأصل عربية باعتبار الحال[١] .

* * *

والتقاء اللغة العربية بغيرها وتأثيرها فيها أو تأثرها بها كان قبل الإسلام وبعده .

---

(١) المزهر جـ ٢ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

قبل الإسلام :

التقى العرب قبل الإسلام فى رحلتى الصيف والشتاء من كل عام بجيرانهم فى الشمال والجنوب .

ولما كان الهدف الأول من هذا اللقاء إنما هو التبادل التجارى وكسب المال، لم تتأثر اللغة العربية به إلا فى التقاط بعض الكلمات من لغات هؤلاء الجيران، وهى كلمات تدل أكثر ما تدل على أشياء مادية لم تكن موجودة فى شبه الجزيرة العربية، أى أنها كانت ضرورة لغوية، وفى أحيان قليلة أخذوا كلمات لمسميات محلية لها أسماؤها العربية تقديراً لأصحابها أو تفكها بها .

نجد ذلك فى شعر بعض شعراء الجاهليين كعدى بن زيد العبادى الذى تربى فى بلاط الأكاسرة، فقد ورد له شعر كثير مملوء بالكلمات الأعجمية .

وربما كان الأعشى هو أشهر من استعمل هذه الكلمات الأعجمية فى شعره قال :ـ

وكأن الخمـر العتيق من الإسفنـ   ـط ممزوجـــة بمـــاء زلال

فكلمة « الإسفنط » أعجمية وهى اسم من أسماء الخمر .

وقال :

لنا جلسان حولهـــــا وبنفسج

وسيسنبر والمـــرزجوش منمنما

ففى هذا البيت أربعة ألفاظ أعجمية لأنواع مختلفة من الأزهار .

• • •

لكن يجب أن نعترف بأن ثمة كلمات أعجمية راجت فى البيئة العربية وتغلبت على مرادفاتها فى لغة العرب، ربما لأنها كانت أخف وأرق وألطف وأظرف .

من ذلك ما يأتى :

---

(١) المزهر جـ ١ ص ١٥٤ ـ ١٦٠ وانظر كلام العرب للدكتور حسن ظاظا ص ٧٧، ومن أسرار اللغة ص ١١٠ .

الكلمة الأعجمية	مرادفها العربي	توضيح
الإبريق	التامورة	
السُكُرُجَةُ	الثُنُوَةُ	
الهاون	المنحاز أو المهراس	
الطاجن	المِقلى	
المسك	المشموم	
الجاسوس	الناطِسْ	
كوسه	الإنط	من لا شعر على عارضيه.
الياسمين	السَّمْسَقُ أو السِّجلاط	والياسمين اسم عربي لنمط من القماش يطرح على الهودج
اللوبيا	الدُّجر	
السكر	المِبْرَتُ	
النرجس	العبهر	
الورد	الحَوْجم	والورد اسم عربي للفرس ومن أسماء الأسد
الرصاص	الصرفان	
الباذنجان	الأنب، المغد، الحدج	
الخيار	القثد أو القتد	

بعد الإسلام

ولما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسلام إلى الناس كافة توجه به المسلمون فى حياته وبعد مماته إلى سائر الأصقاع، فتحوها واستقروا بها، وخالطوا أهلها .

فالتقت العربية لغتهم ولغة دينهم التقاء أطول وأعرض وأعمق باللغات الأخرى .

التقت بالفارسية والرومية والسريانية والتركية والبربرية، وكان ما كان من تأثير وتأثر، ولكن التأثير من جانب العربية كان أقوى وأظهر .

فهى تتمتع ببناء قوى محكم، وقواعد ثابتة مطردة، ومادة غزيرة وفيرة ولا سيما فى المعنويات، ثم إنها لغة الكتاب المنزل والرسالة المنتشرة والأمة الحاكمة .

وقد ترتب على ذلك كله انقراض بعض اللغات وحلول العربية محلها .

وكان ذلك فى البلاد التى تم استعرابها كالشام ومصر .

وثمة لغات انحسرت أو انزوت كالفارسية فى العراق، والبربرية فى شمالى إفريقية .

هذا من ناحية تأثيرها .

• • •

أما من ناحية تأثرها .

فقد اقتصر ذلك كما قلنا على المفردات، وكان استمراراً لما كان قبل الإسلام، لكنه بعد الإسلام كان أكثر وأسير؛ فقد دخل فى الإسلام خلق كثير من غير العرب، ونبغ منهم العلماء والأدباء والمؤلفون .

وننظر فى آثارهم فنجدها ـ عن قصد من أصحابها أو عن غير قصد ـ حافلة بكلمات من لغاتهم الأصلية، يتقوون بها على عربيتهم أو يظهرون بها براعتهم، وفى مرات كثيرة كانت طبيعة أبحاثهم هى التى تحتم عليهم ذلك .

وانظر مؤلفات الفارابى والرازى وابن سينا وغيرهم فى علوم النبات والحيوان والطب والفلسفة ونحوها .

ومن الطريف ما يروى عن الإمام على كرم الله وجهه أنه سأل شريحا مسألة، ولما أجابه بالصواب قال على رضى الله عنه : « قالون » وهى كلمة رومية معناها : أصبت [١] .

• • •

وينبغى التنبيه على أن انتقال الكلمات الأعجمية من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية لم يكن ينظر إليه على أنه عجز أو تقصير منها، وإنما كان ينظر إليه على أنه اتساع فيها ونمو لها .

ومن هنا كان ترحيب العرب به وإفساح العربية صدرها له، لكنه لم يجاوز حده الذى لزمه قبل الإسلام، وهو الاقتصار فى الأعم الأغلب على مسميات الماديات وبخاصة ما كان منها متعلقاً بالمظاهر الحضارية غير المألوفة لسكان شبه الجزيرة العربية كبعض أسماء الآنية والأطعمة والملابس والمنتجات الزراعية والصناعية والحيوانات الأليفة والطيور المنزلية والكماليات والمصطلحات الإدارية .

• • •

وإذ نلقى نظرة على ما جاء فى الكتب العربية كفقه اللغة للثعالبى، والمعرب من الكلام الأعجمى لأبى منصور الجواليقى، وشفاء الغليل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل للشهاب الخفاجى والمزهر للسيوطى، فإننا نخرج بالحقائق الآتية :ــ

(أ) قلة الكلمات الأجنبية التى دخلت اللغة العربية قلة واضحة إذا قيست بالتيار العكسى، وهو دخول كلمات عربية فى اللغات الأجنبية .

فنصف الفارسية من اللغة العربية و ٧٠ ٪ من اللغة التركية كلمات عربية .

(ب) معظم ما دخل العربية من الكلمات الأعجمية لم يبق على ما كان عليه فى لغته الأصلية، بل كانت الكلمة الاعجمية لا تشيع فى البيئة العربية إلا بعد أن تأخذ النسيج العربى وزنا وبنية، فينقص من أطرافها وتبدل بعض حروفها، ويغير موضع النبر منها حتى تصبح على صورة شبيهة بصور الكلمات العربية، وتلك هى التى سماها العلماء فيما بعد : المعرَّب .

وهذه الكلمات حكم أبنيتها فى اعتبار الأصلى والزائد والوزن حكم الكلمات العربية .

---

(١) ــ المزهر جـ ١ ص ٢٧٦ .

أما القليل الذى بقى من الكلمات الأعجمية على صورته الأصلية فلم يكن كثير الدوران على الألسن، وأكثره أسماء أعلام كخراسان وسجستان ورامهرمز وقد سماه علماء العربية : الأعجمى الدخيل تمييزاً له عن المعرب، وكأنما أريد بهذه التسمية إبعاده عن ألفاظ اللغة العربية.

• • •

وإذا جاء المعرَّب هنا قسيما للأعجمى الدخيل، فإنه قد يجىء قسيما للأعجمى المولد؛ ذلك أن عصور الاحتجاج بالنسبة إلى فصحاء الأمصار إنما هى المنتهية بانتهاء القرن الثانى الهجرى، أما بالنسبة إلى فصحاء البوادى فتمتد إلى منتصف القرن الرابع الهجرى .

والمولدون هم من عدا هؤلاء ولو كانوا من أصول عربية .

فما أدخله واستعمله أهل عصور الاحتجاج فى اللغة العربية من كلمات أعجمية يسمى المعرب وهو لا يتجاوز ألف كلمة .

وما أدخله واستعمله المولدون فى اللغة العربية من كلمات أعجمية يسمى الأعجمى المولد وهو أكثر من الأول [1] .

(جـ) ما يمكن أن يسمى نسج الكلمة العربية .

ونسج الكلمة العربية هو أحد وجهى العملة .

أما الوجه الآخر فهو العلامات المميزة لعجمة الكلمة وهذه العلامات هى :

١ ـ النقل : بأن ينقل ذلك أحد أئمة العربية. جاء فى كتاب المعرب للجواليقى : قال ابن دريد . قال أبو حاتم : (الزنديق) فارسى معرب . كان أصله عنده (زنده كرد) (زنده) أى الحياة و (كرد) أى العمل، فالزنادقة دهريون لا يؤمنون بالله بل بالطبيعة أو ما سموه هم (زنده كرد) أى عمل الحياة؛ وهو معنى قول الله تعالى حكاية عنهم (نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) .

٢ ـ خروج الكلمة عن الأوزان العربية المألوفة نحو إبريسم .

قال السيوطى : إن مثل هذا الوزن مفقود فى أبنية الأسماء فى اللسان العربى .

---

(١) انظر فقه اللغة للدكتور وافى ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤، وباب المولد فى المزهر جـ ١ ص ٢٨٣ ــ ٢٧٤ واللغة والنحو لعباس حسن ص ١٤٢ .

٣ ـ أن يكون أول الكلمة نوناً بعدها راء مثل نرجس، فإن ذلك لا يكون فى كلمة عربية .

٤ ـ أن تجتمع الزاى أو الذال مع السين، فالكلمة سازج أو ساذج من المعرب .

٥ ـ أن يكون آخر الكلمة زاياً أو ذالا بعد دال نحو مهندز، فان ذلك لا يكون فى كلمة عربية وقد تطورت فيما بعد إلى مهندس بالسين وكان هذا التطور تعريباً لها .

وجاء فى المزهر للسيوطى : لايوجد فى كلام العرب دال بعدها ذال إلا قليل، ولذلك أبى البصريون أن يقولوا : بغداذ بإهمال الأولى وإعجام الثانية فأما الداذى ـ وهو نوع من الشراب ـ ففارسى لا حجة فيه .

٦ ـ أن يجتمع فيها الطاء والجيم. أو الصاد والجيم، أو القاف والجيم .

فالطاجن والصولجان، والمنجنيق كلها كلمات أعجمية .

وقال الأزهرى فى التهذيب متعقباً من قال : ـ الجيم والصاد لا يجتمعان فى كلمة من كلمات العرب : الصاد والجيم مستعملان، ومنه جصص الجرو إذا فتح عينيه، وجصص فلان إناءه إذا ملأه، والصج ضرب الحديد بالحديد [١] .

٧ ـ أن تكون الكلمة رباعية أو خماسية وخالية من حروف الذلاقة وهى الباء والراء والفاء واللام والميم والنون [٢] .

يقول السيوطى : إنه متى كان اللفظ عربياً فلابد أن يكون فيه شىء منها نحو سفرجل وقرطعب وجحمرش، ولم يستثنوا من ذلك إلا كلمة عسجد .

---

(١) المزهر جـ ١ صفحات : ٢٧٠ ـ ٢٧٢ ـ ٢٨٧ .

(٢) سميت هذه الحروف ذلقية لخروجها من ذلق اللسان أى طرفه قال ابن دريد فى الجمهرة جـ ١ ص ٧ قال الأخفش : سميت هذه الحروف مذلقة لأن عملها فى طرف اللسان وطرف كل شىء ذلقه وهى أخف الحروف وأحسنها امتزاجا بغيرها، وسميت الأخرى مصمتة لأنها أصمتت أن تختص بالبناء إذا كثرت حروفه لاعتياصها على اللسان، وجاء فى كتاب البحث اللغوى عند العرب، ٧١ أن حروف الذلاقه إنما هى الراء واللام والنون لأنها تخرج من ذلق اللسان، وأن الخليل قد ألحق بهذه الثلاثة الفاء والباء والميم لأنها شفوية وسحب عليها اسم الذلاقه كذلك .

٨ ـ أن تشتمل الكلمة على شين بعد لام .

قال ابن سيده فى المحكم : ليس فى كلام العرب شين بعد لام فى كلمة عربية محضة . الشينات كلها فى كلام العرب قبل اللامات [١] .

* * *

ونفهم مما تقدم أن العرب وهم يعربون قد ساروا الخطوات الآتية : ـ

١ ـ كانوا يحملون الجيم الخالية من التعطيش وهى الأصوات الفارسية كافاً أو جيماً أو قافاً مثل جورب أصلها كورب .

٢ ـ أبدلوا الحرف الفارسى ب (أ) فاء فقالوا فى برنده : فرندة، وفى بالودة : فالودج، وربما أبدلوه باء عربية، فقد قال بعضهم فى برنده : برند .

٣ ـ وأبدلوا الشين الفارسية سينا فقالوا فى دشت وهى الصحراء بالفارسية دست بالسين.

٤ ـ ولما وجدوا أن بعض الكلمات الفارسية المنتهية بالهاء قد تجمع بقلب هائها إلى جيمهم غير المعطشة مثل بنده : بنده كان أى عبد وعبيد، عمدوا إلى المفردات من بعض هذه الكلمات فعربوه على أن ينتهى بالجيم .

قال صاحب اللسان : ـ « مشى رهوج » أي سهل لين، وأصله بالفارسية « رهوه »

وقال : ـ الكوسج بالضم وبالفتح الإبط وهو الذى لا شعر على عارضيه

قال سيبويه : أصله بالفارسية كوسه [٢] .

* * *

ونحن نلاحظ أن ما قاله العلماء العرب فى شروح التعريب، وبيان قوانينه وطرقه لا ينضبط انضباطاً علمياً، فالشروط مائعة، والحدود غير جامعة وغير مانعة، وكل قاعدة لها استثناء، وكل قول فيه خلاف، والأمثلة حاضرة تشهد بهذا كله

(١) المزهر جـ ١ ص ٢٧٥ .

(٢) المزهر جـ ١ ص ٢٧٩ .

فأيها نأخذ، وأيها ندع ؟ ! ! [(١)] .

لكننا فى الوقت نفسه نلتمس العذر للعلماء العرب بل وغير العرب، فالمسألة مسألة تطور ونماء فى اللغة، والتطور والنماء لا يتوقفان، بل يتجددان بتجدد الزمان والمكان، ولعله من هنا جاء قرار المجمع اللغوى بجواز التعريب على طريقة العرب عند الضرورة .

والضرورة موجودة دائماً، فنحن لا نستغنى فى نهضتنا الحديثة عن مواكبة الحركات العلمية فى العالم، وهذه الحركات غنية بالمصطلحات العلمية .

لكن المجمع بعدم سماحه بالتعريب إلا عند الضرورة كان حكيماً وواعياً بل حازماً وصارماً؛ لأنه إذا كانت لغتنا تمدنا بما نحتاج إليه فى عصرنا من كلمات أو اصطلاحات فلا داعى للتعريب، وإلا غرقت العربية في طوفان من الكلمات الأجنبية، وفقدنا نحن العرب طابع لغتنا وخصائصها الفنية، فلم نعد نفهم تراثنا ولا كتابنا وصدق علينا قول ربنا : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » .

نسأل الله العصمة فلا حول ولا قوة إلا به .

---

(١) لسنا فى هذه الحيرة وحدنا؛ فقد قرأنا فى كتاب غرائب اللغة العربية للأب رفائيل نخلة اليسوعى ص ١٦٩ قوله . معالجة موضوع المعرب شديدة الوعورة لأن مؤلفى المعاجم من العرب لم ينصوا على أصول الكلمات الدخيلة، وإنما كانوا يكتفون بقولهم : إنها دخيلة .

الصيغ

يدور هذا البحث على أربعة محاور هي :

١ ـ تحديد معنى الصيغ .

٢ ـ فروع علم اللغة، ومجالات تلك الفروع .

٣ ـ علم الصرف : معناه . نشأته وتطوره .

٤ ـ الميزان الصرفي .

المحور الأول

تحديد معنى الصيغ

إن مادة الكلمة فى اللغة العربية أى أصواتها أو حروفها المكونة لها، تأتينا مركبة فى بناء أى مصبوبة فى قالب، ومصوغة فى صيغة .

هكذا تقدم لنا اللغة العربية مفرداتها، فمادة (ك ت ب) نجدها فى كتب يكتب . اكتب . كتابة . مكاتبة . كتاب . كتيب . كاتب . مكتوب . مكتب . استكتب . استكتاب . مستكتب .. إلخ .

وتسمى هذه التراكيب الصوتية للألفاظ العربية : أبنية، وصيغا، وأوزانا .

. . .

هى (بناء) لكونها تركيباً خاصاً للحروف .

وهى (صيغة) باعتبار توزيع الحروف الأصلية والحركات والحروف الزائدة توزيعاً خاصاً يشبه إذابة المعدن وصياغته فى قالب معين أو فى صيغة معينة .

وهى أخيراً (وزن) لأن جميع الكلمات التى تكون من صيغة واحدة لها وزن موسيقى واحد، فالكلمات : قاتل . نازل . صاحب . عاتب . سافر . ذاكر، كلها وغيرها مما هو نظيرها على وزن (فاعل) .

. . .

وإذا كان لكل كلمة عربية (مادة) و (معنى) و (صورة)، فإن الصورة هى التى سماها القدماء بنية أو بناء الكلمة، وصيغة الكلمة، ووزن الكلمة .

خمسة مترادفات هى الصورة، والبنية، والبناء، والوزن، والصيغة .

. . .

وجميع الألفاظ فى اللغة العربية ترد إلى أوزان معلومة، وصيغ محدودة، وقد بلغت عدة هذه الأوزان والصيغ ١٢١٠ (عشرة ومائتين وألف صيغة) .

فالألفاظ [قارىء . عالم . كارم . ناصر . فاتح . ناجح . تاجر . ظافر . سامع ..] بناء واحد أو صيغة واحدة أو وزن واحد .

والألفاظ [نشوان . فرحان . غضبان . عطشان . ظمآن . ريان . شبعان ..] كذلك .

• • •

ولهذا التصنيف قيمة كبيرة لا من حيث الشكل أو الهيئة التى تجمع شمل كلمات كثيرة بداخلها فحسب، بل من حيث المعنى أيضاً؛ ذلك أن لكل بنية أو صيغة معنى تدل عليه بذاتها فضلا عن المعنى العام لها أياً كانت المادة التى تصاغ منها . فصيغة أو بنية (مفعول) كمضروب ومقتول ومهزوم ومنصور ومفتوح ومكسور ومجبور ...... تدل دلالة جزئية على من وقع عليه الفعل لأنها كلها على وزن مفعول، وما دامت على وزن مفعول فهى تؤدى معناه .

ومعناه مزيج مركب ممن وقع عليه الفعل ومن الفعل، ويستوى أن يكون هذا الفعل هو الضرب أو القتل أو الهزيمة أو النصر أو الفتح أو الكسر أو الجبر، كما يستوى أن يكون من وقع عليه الضرب غير من وقع عليه القتل، ومن حلت به الهزيمة غير من أظله النصر، وهكذا .

ونوضح ذلك أكثر فنقول : ـ إذا كانت المادة الأصلية الكاملة تدل على المعنى العام الذى هو مشترك بين حروفها فى جميع تصاريفها، فإن الصيغة تحدد ذلك المعنى العام وتخصصه . خذ مثلا كلمة [مقطع] .

إنها تفيد بحروفها الأصلية المعنى العام للقطع . أما صيغتها [مفعل] فإنها تحدد ذلك المعنى العام بمكان القطع .

والكلمات : جميل وعظيم ورقيق، تفيد بمادتها الجمال والعظمة والرقة، وبصيغتها الاتصاف بهذه الصفات .

والخلاصة : أن الصيغ فى اللغة العربية ما هى إلا قوالب فكرية تصب فيها المعانى العامة فتحددها وتعطيها حجمها ومعناها، أى أنها تجعلها على سمتها كماً وكيفاً، وهى بالمفهوم الذى بيناه ظاهرة لغوية طبيعية وصحية لأنها تحد من نتوءات اللغة وجموحها، وتجمع شملها تحت مجموعات يمكن ضبطها بدلا من تركها فوضى على حل شعرها، كل كلمة أمة وحدها، وكيان قائم بنفسه .

المحور الثانى

فروع علم اللغة

فروع علم اللغة أربعة هى :ـ

١ ـ علم الأصوات .

٢ ـ علم الدلالة .

٣ ـ علم النحو .

٤ ـ علم البنية (١) .

ولما كان علم الأصوات Phonology (٢) محتاجاً فى فهمه وتصوره إلى الوقوف على الطبيعة الفسيولوجية لأعضاء النطق Phisiology وعلى الصفة التشريحية لمخارج الحروف Anatomy وكانت الأصوات فى ذاتها غير مستغنية عن تسجيلها لدراستها دراسة تجريبية معملية (٣) ، فإننا سنقتصر من فروع اللغة على الثلاثة الأخيرة .

وهذه هى :ـ

---

(١) جعلها الدكتور كمال بشر خمسة بشطره الدلالة شطرين هما : الدراسات المعجمية، وعلم المعنى، ثم عاد وجعلها أربعة فى كتابه « دراسات فى علم اللغة » القسم الثانى صفحتى ١٢، ٨٤ من الطبعة الثانية ١٩٧١ .

(٢) هذا إذا قصد به قيم الأصوات ووظائفها فى لغة معينة كاللغة العربية أما إذا قصد به مجرد النطق، وما يرتبط بذلك من سمات صوتية دون نظر إلى وظائفها أو قيمها اللغوية فى الكلمات التى تتألف منها، فإن المصطلح الدال على ذلك هو Phonelics وقد ينعت أحيانا بالصفة General أى العام .

* انظر المرجع السابق ص ١٠ « وكلام العرب » للدكتور حسن ظاظا ص ٧ ـ ٤٠ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ .

(٣) ارجع فى توضيح صعوبة دراسة علم الأصوات إلى كتاب دراسات فى علم اللغة قسم (٢) صفحات ٢٠ ـ ٢١، ٦٧ ـ ٧٦ .

١ ـ علم الدلالة .

أى دلالة الكلمات على معانيها، وقد اختار له مجمع اللغة العربية مصطلح « السيمية » .

لكن بعض المحدثين يفضلون مصطلح « السيمانتيك » Semantics لكثرة تداوله (١) .

وهو يبحث فى الألفاظ المفردة على مستوى المعجمات .

والمعجمات السائرة الآن أربعة، وهى تنقسم من حيث الكشف عن معانى المفردات بها إلى قسمين : ـ

القسم الأول يتكون من معجمين هما : ـ

(ا) مختار الصحاح لمؤلفه محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى المتوفى سنة ٧٨٠ هـ، كان فراغه من تأليفه سنة ٧٦٠ هـ، وقد اختاره ليس كله بل جله من كتاب الصحاح لإسماعيل ابن حماد الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ .

(ب) المصباح المنير لمؤلفه أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ .

والاسم الكامل لهذا الكتاب هو : (**المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير**) .

فأصله أنه معجم للكلمات الغريبة الواردة فى كتاب (**الشرح الكبير**) للامام الرافعى .

والشرح الكبير هذا شرح لكتاب (**الوجيز**) فى فروع الفقه على المذهب الشافعى، لحجة الإسلام الغزالى .

لكن لم يقتصر الفيومى فيه على تفسير الغريب فى الشرح الكبير، بل أضاف إليه إضافات كثيرة .

القسم الثانى : ـ وهو مثل القسم الأول يتكون من معجمين هما :

(ا) لسان العرب لجمال الدين محمد بن جلال الدين بن مكرم الأنصارى الخزرجى الإغريقى المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ .

---

(١) علم اللغة قسم ٢ ص ١٢ د. كمال نشر .

و« لسان العرب » هو أكبر المعاجم العربية حجماً إذ تبلغ نسخته المطبوعة عشرين جزءاً، وقد اشتمل على ثمانين ألف مادة، وتحت كل مادة كثير من المشتقات، وهذه المشتقات يصعب عدها لكثرتها .

(ب) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادى المتوفى ٨١٧ هـ .

وقبل ظهور هذا المعجم كانت كلمة « قاموس » تعنى البحر الأعظم، لكن بعد ظهوره صارت علما عليه، ثم تطورت حتى صارت اسم جنس يطلق على كل معجم .

• • •

ونبين الآن كيفية الكشف عن معانى الكلمات فى كل قسم .

القسم الأول : كل من « مختار الصحاح » و« المصباح المنير » قد بناه مؤلفه على أبواب بعدد الحروف الهجائية فى اللغة العربية هكذا :

باب الهمزة . باب الباء . باب التاء .. إلخ .

فحين نريد الكشف عن معنى كلمة من الكلمات نجردها أولا من الحروف الزائدة إن وجدت أو نردها إلى مفردها إن كانت جمعاً، ثم نكشف عنها فى باب أول حرف منها، وما يثنيه ويثلثه .

فمثلا : الكلمة (استفهم) والكلمة (أقلام) نكشف عن الأولى فى باب [فهم] أى باب الفاء والهاء وما يثلثهما وهو هنا الميم، وعن الثانية فى باب [قلم] أى باب القاف واللام وما يثلثهما وهو الميم أيضاً .

القسم الثانى : والأبواب فى معجمى هذا القسم تنقسم إلى فصول تخضع كالأبواب لترتيب الحروف الهجائية، وسيتضح ذلك من التمثيل، فحين نريد الكشف عن معنى كلمتى (استنام) و (الرجال) نردهما إلى أصلهما هكذا : (نام) (رجل) ونكشف عن الأولى فى باب الميم فصل النون، وعن الثانية فى باب اللام فصل الراء .

قال صاحب القاموس فى مقدمته :

إذا رمت فى القاموس كشفا للفظة

فآخرها للبـــــاب والبدء للفصل

وهكذا فى اللسان .

• • •

٢ ـ علم النحو :

ومجاله إنما هو أواخر الكلمات بعد تركيبها فى جمل . أما أدواته فهى الحركات أو السكون، والحروف إثباتاً أو حذفا .

ولا يقتصر علم النحو فى الدراسات اللغوية الحديثة على البحث فى الإعراب ومشكلاته، بل عليه أن يبحث فى أشياء أخرى كالموقعية والارتباط الداخلى بين الوحدات المكونة للجملة أو العبارة(١) .

٣ ـ علم البنية :

ويسميه الغربيون المورفولوجيا Moyphotogfe ولكى نتصوره فإننا نشبهه ببناء البيوت، فكما نبنى البيوت من اللبنات أو الكتل الخرصانية فإننا نبنى الكلمات من الحروف الهجائية، وكما تختلف البيوت فى حجمها ومظهرها الخارجى، تختلف الكلمات فى جرمها وضبط حروفها ووزنها وتختلف دلالاتها تبعاً لذلك كله .

فالكلمة نصر بفتح حروفها الثلاثة معناها يختلف عن معنى نصر وهو مصدر، وعن معنى نصر بالبناء للمجهول، وعن معنى ناصر وهو اسم الفاعل، وعن معنى منصور وهو اسم المفعول وهكذا .

. . .

ولأهمية هذا الفرع، فإننا سنخصص المحور التالى له .

---

(١) انظر اللغة والنحو بين القديم والحديث للأستاذ عباس حسن ص ٦٦ ـ ٧١ الطبعة الثانية دار المعارف سنة ١٩٧١، والبحث اللغوى عند العرب للدكتور أحمد مختار عمر ص ٧٤ ـ ١٣٤ الطبعة الأولى سنة ١٩٧١ ودراسات فى علم اللغة للدكتور كمال بشر القسم الثانى ص ١١ .

المحور الثالث
علم الصرف

الصرف أو التصريف معناه فى اللغة التغيير .

قال الزمخشرى فى أساس البلاغة مادة [صرف] : حفظك الله من صرف الزمان وصروفه وتصاريفه أى تقلباته، وتقول : تصرفت بصديقى الأحوال أى تغيرت حياته من غنى إلى فقر، ومن عمل إلى بطالة، ومن سعادة إلى شقاء .. أو العكس .

وإنه ليتصرف أى يحتال .

ومعناه الاصطلاحى مزدوج :

علمى أى نظرى .

وعملى أى تطبيقى .

والصرف بمعناه الاصطلاحى العلمى يتمثل فى القواعد والقوانين التى تُعرف بها أحوال أبنية الكلمة مما ليس بإعراب ولا بناء .

أما معناه الاصطلاحى العملى، فيكون بتحويل الأصل الواحد إلى كلمات كثيرة ذات معان مختلفة، لكنها تشترك من بعض الوجوه فى معنى الأصل كتحويل المصدر إلى اسمى الفاعل والمفعول، واسمى الزمان والمكان، والمثنى والجمع وغيرها .

* * *

والصرف بمعناه العملى هذا قد يشتبه بالاشتقاق لكنَّ بينهما فرقا هو أن توليد الكلمة من أصلها، وصدورها عن مادتها يسمى اشتقاقاً، أما صبها فى أوزان مخصوصة وقوالب محددة فهو ما يسمى صرفا .

ويمكن القول بأنه إذا كان الاشتقاق عبارة عن حركة حية دائمة تلد للغتنا كل لحظة مولوداً جديداً، وتلبى أدق مطالب التعبير الفنى علمياً كان أو أدبياً، فإن هذه المشتقات تندمج فوراً ودون إبطاء فى صيغ مفصلة على قدودها، بل قد تولد لابسة هذه الصيغ، فنحن من الاشتقاق والتصريف أمام ظاهرتين متعاكستين، وإنهما على تعاكسهما لمتداخلتان ومتكاملتان إحداهما تنتج والأخرى تنظم .

ومعنى تعاكسهما أن الاشتقاق يكثُر والتصريف يقل .

وإنهما معاً ليعودان على اللغة العربية بالغنى ويهبانها القدرة على التطور المنظم .

ولعل هذا الترابط والتلازم بين الاشتقاق والتصريف هو ما ألمح إليه ابن جنى بقوله :

وينبغى أن يُعلم أن بين التصريف والاشتقاق نسباً قريباً واتصالا شديداً .

* * *

وقد توزع تعريف القدماء للتصريف بمعناه الاصطلاحى على ناحيتيه العلمية والعملية .

قال ابن الحاجب : التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال بنية الكلم التى ليست بإعراب.

وقال ابن مالك : التصريف علم يتعلق ببنية الكلمة وما لحروفها من أصالة وزيادة وصحة وإعلال وما أشبه ذلك .

• • •

وإذا كان هذان التعريفان ينصبان على التصريف بمعناه الاصطلاحى العلمى فإن تعريف ابن جنى له يوضح معناه الاصطلاحى العملى قال : « معنى قولنا (**التصريف**) هو أن تأتى إلى الحروف الأصول فتتصرفَ فيها بزيادة حرف أو تحريف بضرب من ضروب التغيير فذلك هو التصريف فيها والتصريف لها نحو قولك :ـ

ضرب . فهذا مثال الماضى فإن أردت المضارع قلت : يضرب أو اسم الفاعل قلت : ضارب أو اسم المفعول قلت : مضروب أو المصدر قلت ضرباً أو فعل ما لم يسم فاعله قلت : ضُرِبَ. وإن أردت أن الفعل كان من أكثر من واحد على وجه المقابلة قلت : ضارب، فإن أردت أنه استدعى الضرب قلت : استضرب فإن أردت أنه كثر الضرب وكرره قلت : ضرّب، فإن أردت أنه كان فيه الضرب فى نفسه مع اختلاج وحركة قلت : اضطرب وعلى هذا عامة التصريف فى هذا النحو من كلام العرب فمعنى التصريف هو ما أريناك من التلعّب بالحروف الأصول لما يراد فيها من المعانى المفادة منها وغير ذلك [١] .

• • •

(١) التصريف الملوكى لابن جنى ص ٧ ـ ٨ .

ومهما يكن من أمر فإن المعنيين العلمى والعملى للتصريف يحصران مدلوله المزدوج فى أبنية الكلمة وأحوالها التى ليست بإعراب ولا بناء، أى أنه يتناول اللفظة المفردة وما يعرض لبنائها من تغيير بتصغير أو نسب أو جمع أو اشتقاق وما يعرض لحروفها من إعلال أو إبدال أو حذف أو إمالة أو إدغام ... إلخ .

. . .

ولم يفرد الصرف بالبحث فى أول الأمر بل كانت موضوعاته تتخلل موضوعات النحو، ولما نشطت حركة البحث والتأليف واتجهت الدراسات نحو التخصص الدقيق استقل الصرف بالكتب الصرفية البحتة .

– ا –

وأول من ألف فيه تأليفاً ذا قيمة هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه مولى الحارث بن كعب بن عمرو [١٣٥ ـ ١٨٠ هـ] .

وكتابه [الكتاب] أشهر من أن يُعرف به وقد كان القدماء يسمونه البحر تشبيهاً له بالبحر لكثرة جواهره وصعوبة ركوبه وكان المبرد إذا أراد إنسان أن يتتلمذ عليه يقول له :ـ

هل ركبت البحر ؟؟ يقصد هل قرأت الكتاب لسيبويه ؟ تعظيماً له واستصعاباً لما فيه .

وفى هذا الكتاب الفخم الضخم عالج سيبويه موضوعات كثيرة من الصرف لكنها جاءت مختلطة بموضوعات النحو .

من ذلك الكلام على المجرد والمزيد من الأسماء الثلاثية والرباعية والخماسية والأفعال بأنواعها المجردة والمزيدة ومواضع الزيادة وكيفية معرفة الحروف الزائدة .

. . .

وفى الكتاب باب خاص بالمعتل تكلم فيه سيبويه عن معتل الفاء والعين واللام بالواو والياء كما تكلم عن قلب الواو ياء والياء واواً وعن المضعف وغير ذلك من مسائل الصرف [١] .

* * *

وقد جاء بعد سيبويه من جعلوا الصرف علماً مستقلاً جديراً بقصر الكتب عليه وتخصيصها لـــه،

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٣١٥ ـ ٤٠٣ .

من هؤلاء .

- ٢ -

- أبو عثمان المازني المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ألف كتابه (التصريف) .

وهو أقدم كتاب وصل إلينا مما أفرد فيه التصريف بالتأليف، ولم يزد المازنى على أن خلص الموضوعات الصرفية من أختها النحوية فى كتاب سيبويه ثم لخصها وأضاف إليها بعض الشواهد والأمثلة .

- ٣ -

أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ .

ألف كتاب (الجمل) .

وقد تناول فيه بعض الموضوعات الصرفية لا كلها كجموع التكسير وأبنية المصادر، واسمى الزمان والمكان، واسمى الفاعل والمفعول والإدغام والإمالة .

وقد أخذ عليه أنه لم يشرح هذه الموضوعات شرحاً وافياً .

- ٤ -

أبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ . وله فى الصرف الخالص مؤلفان هامان هما :ـ

(ا) المنصف فى شرح التصريف .

وقد ضمنه مختلف الآراء فى المسائل التى بحثها المازنى، وقارن بينها واختار منها ما رآه صحيحاً .

(ب) التصريف الملوكى .

وهذا الكتاب يعد خطوة كبيرة فى تطور الصرف، لأن ابن جنى رتب موضوعاته ترتيباً أدق من ترتيب سيبويه والمازنى والزجاجى .

وذلك بأن جمع القواعد التى ذكرها سيبويه وقسمها واضعاً لكل قسم منها عنواناً جديداً يضم ما تفرق من المسائل المتشابهة فى فصل واحد أو فى باب واحد .

. . .

ولابن جنى كتابان آخران لكنهما غير متمحضين للمسائل الصرفية وهما : **(الخصائص)** . و **(التمام فى تفسير أشعار هذيل)** .

- ٥ -

جمال الدين المالكى المشهور بابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٨ هـ .

وكتابه [الشافية] من أهم كتب الصرف العربى، فقد جعله عدة أقسام، بدأها بأوزان المجرد والمزيد . وذكر بعدها :

الأبنية التى تكون للحاجة .

كالماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول، واسمى الزمان والمكان، واسم الآلة، والمصغر والمنسوب والجمع والتقاء الساكنين والابتداء والوقف .

الأبنية التى تكون للتوسع .

كالمقصور والممدود وذى الزيادة .

الأبنية التى تكون للمجانسة .

كالإمالة .

الأبنية التى تكون للتخلص من الاستثقال .

كتخفيف الهمزة والإعلال والإبدال والإدغام والحذف .

. . .

وواضح أن ابن الحاجب قد غطى بكتابه (الشافية) كل موضوعات الصرف وهى فيه مرتبة ترتيباً منطقياً، ومقسمة إلى :

أبنية المناجة .

أبنية التوسع .

أبنية المجانسة .

أبنية التخلص من الاستثقال .

ومن الإنصاف أن نقرر أن الدراسات الصرفية من بعده قد اعتمدت عليه اعتماداً كلياً، ولاعجب، فقد جمع ابن الحاجب فيه معظم ما قيل قبله، أى منذ سيبويه حتى عصره وقد سلك فيه طريقة تقريرية؛ فهو يحدد الموضوع، ويقسمه . ثم يشرح كل قسم على حدة .

. . .

وقد أدلى المغاربة بدلوهم فى علم الصرف . ولو أن معالجتهم له قد جاءت — فى الأغلب — ضمن معالجة مسائل النحو .

ونقف منهم عند :

أبو موسى عيسى بن عبد العزيز المعروف بالجزولى المتوفى فى الفترة من ٦٠٦ إلى ٦١٦ هـ .

ألف كتاب (القانون) الذى اشتهر باسم « المقدمة الجزولية » .

وهو كتاب فى النحو والصرف بدون فصل بين موضوعات النحو وموضوعات الصرف .

- ٧ -

زين الدين أبو الحسين يحيى بن عبد المعطى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ .

وله « الدرة الألفية فى علم العربية » وهى منظومة شعرية فى النحو والصرف .

. . .

ويختلف ابن معطى عن الجزولى فى أنه لم يخلط موضوعات الصرف بموضوعات النحو . وإنما ذكر كل قسم منهما على حدة .

وقد ابتدأ بالنحو . ثم ثنى بالصرف دون أن يقول : إن هذا نحو . وذاك صرف .

وقد فعل نفس الشىء فى كتابه (الفصول) .

- ٨ -

أبو عبد الله محمد بن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ هـ صاحب منظومتى : «الكافية» . و«الألفية» . فى النحو والصرف .

. . .

ونظم أيضاً ما سماه (لامية الأفعال فى أبنية الأفعال) .

والأفعال فى هذه التسمية مقصود بها الأفعال ومصادرها وما اشتق منها . وهذا يعنى أن هذه المنظومة فى الصرف البحت .

ومن كتبه المنثورة : (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) و (التصريف) . وهو شرح لقسم الصرف فى الكافية .

والتصريف العملى عنده هو تحويل الكلمة من أبنية إلى غيرها لغرض لفظى أو معنوى، وهذا التصريف منه ما هو ضرورى كصوغ الأفعال من مصادرها، والإتيان بالمصادر على وفق أفعالها، وبناء فعال وفعول من فاعل قصداً للمبالغة .. إلخ .

ومنه ما هو غير ضرورى كأن نقول هات من ضرب على مثال دحرج فتقول : ضربب وغير ذلك .

. . .

ولم تتقدم الدراسات الصرفية تقدماً يذكر بعد ابن الحاجب وابن مالك، فقد أخذت بحوث الصرف شكلها النهائى على أيديهما، وكل من جاء بعدهما فإنما كان شارحا لهما أو معلقاً عليهما كالشروح الكثيرة للشافية والتسهيل والألفية .

* * *

ماذا قال هؤلاء العلماء الأجلاء فى كتبهم ؟

وما فحوى كلامهم ؟

هذا ما أحيلكم عليه .

وأرجو لكم التوفيق فى معرفته .

* . *

المحور الرابع
الميزان الصرفى

لكل أهل صناعة ميزان يقومون به ما يعرض عليهم مما يدخل فى اختصاصهم، فللصائغ معيار يعرف به صحة الذهب من زيفه، وللتاجر ميزان يزن به ما يبيعه أو يشتريه .

ولما كان نظر علماء الصرف منصبا على الكلمة من جهة حروفهاالتى تتألف منها ليميزوا بين الحرف الأصلى والزائد .

ومن جهة وزنها لينحازوا بها إلى نوعها اضطرهم ذلك إلى اتخاذ معيار من الحروف سموه(الميزان الصرفى) .

يزنون به الكلمات ليعرفوا عدد حروفها وترتيب هذه الحروف، وما فيها من أصول وزوائد وحركات وسكنات، وما عساه أن يكون قد طرأ عليها من تغييرات .

. . .

وقد نظروا إلى الحروف الأصلية للكلمات فوجدوها لا تقل عن ثلاثة إلا لعلة طارئة، ولا تزيد عن خمسة، وترتب على ذلك أن جعلوا حروف الميزان الصرفى ثلاثة، لأن الكلمات الثلاثية الأصول أكثر استعمالا من الرباعية ومن الخماسية، ولأنهم لو جعلوه رباعيا أو خماسيا لاضطروا إلى حذف حرف أو اثنين عند وزن كلمة رباعية أو ثلاثية، ولأن يجعلوا الميزان ثلاثيا ثم يزيدوه إذا وزنوا رباعيا أو خماسيا، خير من أن يجعلوه على خمسة أحرف ثم ينقصوا منه إذا وزنوا رباعيا أو ثلاثيا، فالزيادة أسهل من الحذف .

ووحدات الميزان الصرفى هى ف.ع.ل.

والسبب فى اختيار هذه الحروف بالذات سبب مزدوج .

فأولا : هذه الحروف موزعة على المخارج الثلاثة للكلام : الفاء من الشفة والعين من الحلق، واللام من اللسان .

وثانيا : الفعل (فعل) أعم الأحداث فى كل اللغات، إذ يصدق على كل حدث أنه فعل، وبمرور الزمن وبكثرة الاستعمال تجردت مادة (فعل) من معنى الفعل وصارت مصطلحا للميزان الصرفى كوحدات الميزان المادى سواء بسواء .

. . .

وباعتماد هذا المقياس أو هذا الميزان سمى علماء الصرف الحرف المقابل للفاء وهو الحرف الأول كالنون فى (نصر) فاء الكلمة، والحرف المقابل للعين وهو الصاد فى (نصر) عين الكلمة والحرف المقابل للام وهو الراء فى (نصر) لام الكلمة .

والتزموا فى الميزان (فعل) أن تقابل حروفه بالحركات والسكنات التى جاءت عليها أحرف الكلمة الموزونة وأن يتشكل بالشكل الذى جاءت عليه هذه الكلمة من تقديم أو تأخير ومن زيادة أو حذف .

ولمعرفة وزن الكلمة سننظر فى المجرد والمزيد على الوجه الآتى :

المجرد :

المجرد هو ما كانت جميع حروفه أصلية .

ويكون فى الاسم على ثلاثة أنواع هى :

المجرد الثلاثى . والمجرد الرباعى . والمجرد الخماسى .

أما الفعل فيكون إما ثلاثياً وإما رباعياً ولا يكون خماسياً .

فإذا أردنا أن نزن كلمة من ثلاثة أحرف أصول سواء كانت اسماً أم فعلا، نقابل أحرفها بحروف [فعل] بعد أن نضبط الفاء والعين من [فعل] بنفس ضبط ما يقابلهما من الكلمة الموزونة.

أما الحرف الثالث وهو اللام فلا نضبطه لأنه محل الإعراب أو البناء هكذا :ـ

كَتَبَ وزنها فَعَل

عَلِمَ وزنها فَعِل

كَرُمَ وزنها فَعُل

سَبُعٌ وزنها فَعُل

شَمْسٌ وزنها فَعْل

ذِئْبٌ وزنها فِعْل

* * *

وإذا أردنا وزن كلمة من أربعة أحرف أصلية اسماً أم فعلا، فإننا نزيد لاماً ثانية على حروف [فعل] فى آخرها. أى أن الميزان يصير [فعلل] للفاء والعين واللام الأولى فى مقابلة ثلاثة الحروف الأولى من الكلمة الموزونة، واللام الثانية مقابل الحرف الرابع .

وكما عملنا فى الثلاثى من حيث الضبط نعمل فى الرباعى، فلا نضبط الحرف الأخير وهو هنا اللام الثانية أى الحرف الرابع هكذا ـ

دَحْرَجَ وجَعْفَرَ على وزن فَعْلَل .

دِرْهَم على وزن فِعْلَل .

بُرْثُنٌ على وزن فُعْلُل .

حِدْرِجٌ على وزن فِعْلِل (١) .

* * *

أما إن كانت خماسية ولا تكون إلا اسما فإننا نزيد لاماً ثالثة على حروف الميزان بحيث يصير [فعلل] .

فنقول فى :

جَحْمَرِش فَعْلَلِل .

وفى :

فَرَزْدَق فَعَلَّل .

وإنما اقتصر التكرار على اللام مرة فى الرباعى، ومرتين فى الخماسى؛ لأنها طرف .

* * *

(١) البرثن . الأرض السهلة، وحدرج السوط أى فتله .

ما مر إنما هو مذهب البصريين، وهم يثبتون للمجرد رباعياً وخماسياً . أما الكوفيون، فإنهم يقصرون المجرد على الثلاثى فى الأسماء والأفعال، ويجعلون ما فوق الثلاثة من الزوائد، ثم اختلفوا : ـ

فمنهم من يتوقف فى وزن ما زاد على ثلاثة أحرف، ويقول فى وزنه : لا أدرى .

ومنهم من يزنه فيقابل الأصول الثلاثة الأول بالفاء والعين واللام، وما زاد على ذلك يقابله بلفظه فيقول فى وزن جعفر : [فَعْلَر] .

ومنهم من يكرر اللام فيما زاد على الثلاثة مع قوله بزيادته . وما قلناه يتحقق إذا كانت أحرف الكلمة الموزونة صحيحة، أما إذا كان فيها إعلال أو إدغام أو غيرها .

فمنه ما لا يراعى فيه التغيير عند الوزن .

كالإعلال بالقلب .

وذلك فى معتل العين أو اللام عند تغييره بقلب عينه أو لامه ألفاً، فهذا الإعلال لا يُغَير له الميزان، وإنما يُؤتى به على حسب أصل الكلمة قبل حدوث الإعلال .

فنقول فى نحو قال وباع، إنهما على وزن [فَعَل]

وفى خاف وهاب، إنهما على وزن [فَعِل]

ولا يجوز أن نقول فيهما إنهما على وزن [فال]

وإن كان هذا هو رأى عبد القاهر الجرجانى .

ونقول فى سما ودعا، وفى رمى وقضى إنهما على وزن [فَعَل] .

ولا نقول : إنهما على وزن [فَعَا] إلا على رأى عبد القاهر .

* * *

و مثل ما مر فى عدم مراعاة التغيير عند الوزن، التغيير الذى يكون بسبب الإدغام، إذ توزن الكلمة على أصلها قبل حدوث التغيير .

فوزن شَدَّ، رَدَّ [فَعَلَ]

ووزن وَدَّ، مَلَّ [فَعِلَ]

ووزن عض [افْعَلْ]

ووزن شُدّ [افْعُلْ]

ووزن فِرّ [افْعِلْ]

* * *

ومن التغيير ما يراعى عند الوزن .

وذلك كالإعلال بالحذف .

فإذا حذف من الكلمة الموزونة حرف من الأصل حذف نظيره في الميزان فوزن عد، صف، صل [عِل] لأنها من وعد ووصف ووصل، فحذفت فاء الكلمة .

ووزن عد، قل، قم [فُل] لأنها من عاد وقال وقام، فحذفت عين الكلمة .

* * *

ومن التغيير الذى يراعى عند الوزن التغيير الذى يطرأ على بعض الكلمات فى بعض اللجهات من تسكين حرف أو تحريك آخر .

فتقول فى لِعب، ضِحك إن وزنهما [فِعل] ولو أنهما فى لهجة قريش لَعِبَ، ضَحِكَ على وزن [فَعِل]، وتقول فى بِئر، رِئم [فِعِل] ولو أنهما على وزن [فِعْل] فى الأكثر .

* * *

و التغيير بالقلب المكانى يراعى فى الميزان كما حصل فى التغييرين السابقين .

فوزن راء، ناء [فَلَع] لأنهما من رأى ونأى على التعاقب .

المزيد :

وقبل أن نتكلم عن المزيد نتكلم عن الزيادة .

والزيادة هى أن يضاف إلى حروف الكلمة الأصلية حرف أو أكثر، وهى نوعان :

نوع يكون بتكرير حرف أو أكثر من أصول الكلمة .

وكل حروف الهجاء تقبل التكرير إلا الألف .

مثال تكرير الفاء : قرقف، سندس .

ومثال تكرير العين : هذّب، كرّم، سلّم، تبّع .

ومثال تكرير اللام : احمرّ، ابيضّ، اقعنسس، جلبب، خِدَبّ، قِرْشَبّ .

والنوع الثانى من أنواع الزيادة زيادة حرف ليس من جنس حروف الكلمة

وهذا النوع يقع فى الاسم كزيادة الألف فى ضارب وذاهب، وزيادة الواو فى كوكب وجوهر، والياء فى صيرف، والميم والواو فى مضروب ومنصور . ويقع فى الفعل كزيادة الهمزة فى أكرم وأحسن . والألف فى قاتل وضارب . والتاء والألف فى تغافل وتناوم، والهمزة والنون فى انكسر وانطلق، والهمزة والسين والتاء فى استغفر واستقام واستفهم .

* * *

وهذا النوع من الزيادة يكون بحروف معينة هى حروف « سألتمونيها » وجمعها بعضهم فى « أمان وتسهيل » فقال :

سألت الحروف الزائدات عن اسمها :

فقالت ولم تبخل . « أمان وتسهيل » .

وقد ذكر ابن جنى أن أبا العباس المبرد سأل أبا عثمان المازنى عن حروف الزيادة فأنشده :

هويت السمان فشيبننى وما كنت قدماً هويت السمانا

فقال له : الجواب . فرد أبو عثمان بقوله : قد أجبتك فى الشعر دفعتين يريد قوله « هويت السمان » .

* * *

وليس معنى أن هذه الحروف هى حروف الزيادة أنها لا تأتى فى الكلام إلا زائدة، بل معناه أن الزيادة بغير التكرير لا تكون إلا منها، أما هى فقد تكون أصول الكلمة كلها منها نحو سال، نام، تَمَّ، ملأ، مات . وقد تتركب جمل مفيدة منها نحو« ملأت الإناء ماء » .

كيفية التمييز بين الحرف الأصلى والزائد فى الكلمة

لذلك طرق منها :

١ ـ سقوط الحرف من الأصل يعتبر دليلا على زيادته كسقوط الياء فى كريم من الكرم، والألف فى ضارب من الضرب .

٢ ـ سقوطه من فرع ذلك اللفظ كسقوط ألف كتاب من جمعه (كتب) .

٣ ـ سقوطه فى بعض استعمالات اللفظ، بأن يستعمل مرة بهذا الحرف، ومرة بغيره مع اتحاد الكلمتين فى المعنى، وذلك كسقوط ياء أيطل من الإطل ومعناهما واحد وهو الخاصرة قال امرؤ القيس يصف فرسه :

له أيطلا ظبى وساقا نعـــــامة

وإرخاء سرحان وتقريب تتفــــــل

٤ ـ حمل الجامد على المشتق، فإذا دل الاشتقاق على اطراد زيادة حرف فى موضع، حكم بزيادة هذا الحرف فى هذا الموضع لا من المشتق فحسب بل من الجامد أيضاً .

مثال ذلك أن الهمزة تكثر زيادتها متصدرة ثلاثة أصول كأحمد وأفضل وأحسن وأعظم وأجمل ...

وبناء عليه نستطيع أن نحكم بزيادتها فى أرنب .

٥ ـ أن يلزم على تقدير كونه أصلا عدم النظير لتلك الكلمة فى كلام العرب مثل (عُرُنْد) فإننا لو قلنا بأصالة نونه للزم وجود ما ليس له نظير فى كلام العرب، إذ ليس فى الكلمات الرباعية الأصل كلمة على مثال (جُعْفُر) ومثل (تَنْضُب) فإننا لو قلنا بأصالة التاء للزم وجود ما ليس له نظير وهو وجود (جَعْفُر) .

٦ ـ أن يدل الحرف فى الكلمة على معنى يذهب بذهابه، مثل أحرف المضارعة، ونونى التثنية والجمع، والألف والتاء فى جمع المؤنث السالم، والميم فى أول بعض المشتقات مثل ملعب ومكتب ومفهوم ومظلوم ... إلخ .

فوائد الزيادة

اللغة العربية لغة عبقرية لا تجرى الأمور فيها شاردة بلا ضابط، وإنما كل شيء بقدر وحكمة.

والدليل على ذلك ما نحن فيه الآن من أحرف الزيادة، فمن غير المسموح به زيادة حرف أو أكثر إذا لم تقترن هذه الزيادة بفائدة، أما إذا كانت الزيادة لفائدة فأهلاً بها وسهلاً، لأنها فى هذه الحالة تكون إثراء للغة وإخصاباً لها وبسطة فى نفوذها .

والفوائد التى تحققها الزيادة كثيرة منها :

١ ـ الزيادة للمد :

أى مد الصوت، وذلك مقصور على أحرف العلة وهى الألف والواو والياء مثل سحاب ورسول وصحيفة .

* * *

وحاجة العرب إلى المد حاجة ماسة وملحة، فقد يكون عوضاً عن شيء حذفوه، وربما طلبوه للين الصوت فيه أو لطوله به وأوضح ما يكون ذلك فى القوافى .

٢ ـ الزيادة للتعويض :

كما فى (اسم) فقد زيدت همزة الوصل فى أولها عوضاً عن المحذوف الذى هو فاء الكلمة عند من يرى أنه من الوسم، أو لام الكلمة عند من يرى أنه من السمو، وكزيادة التاء فى عدة، وزنة، عوضاً عن الواو المحذوفة والتى هى فاء الكلمة فى وعد ووزن .

٣ ـ الزيادة لبيان الحركة :

كزيادة الألف فى (أنا) لبيان حركة النون .

ومن ذلك ما حكاه سيبويه من أنّ من العرب من يقول فى الوقف (قالا) وهو يريد (قال) مبيناً الحركة بالألف .

٤ ـ الزيادة لإمكان النطق بالساكن :

كزيادة همزة الوصل فى أول الأسماء والأفعال المبدوءة بالساكن نحو [اثنين] و [امرىء]، ونحو (اكتب . اضرب . انتصر . انفتح . استفهم ... إلخ) .

٥ ـ الزيادة بأصل الوضع للاستغناء عن المجرد من أول الأمر :

فقد استغنوا بافتقر واشتد عن فَقُرَ وشدُدَ .

يقول سيبويه « ولم نسمعهم قالوا : فَقُرَ، كما لم يقولوا شَدُدَ .

استغنوا بافتقر واشتد كما استغنوا باحمرَّ عن حَمِرَ واستغنوا بارتفع عن رَفُعَ، ولم نسمعهم تكلموا برفُعَ » [1].

* * *

هذا ما قرره سيبويه لكن ابن منظور قد ضمن « لسان العرب » ما ذكر سيبويه أن العرب استغنت عنه .

ولسنا ندرى هل قصر سيبويه فى الاستقراء حين قرر ما قرر، أم أن الناس بعده قد تكلموا بالمجرد .

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٢٢٥ .

٦ ـ الزيادة لمعنى :

أى أن يقصد بالزيادة إفادة معنى لم يكن فى الكلمة المجردة كزيادة الألف فى كاتب ولاعب لإفادة الوصف بالفاعل، والميم والواو فى مكتوب ومضروب لإفادة الوصف بالمفعول، وكزيادة حروف المضارعة فى أعلم ونعلم ويعلم وتعلم، فإنها تفيد معانى التكلم للمفرد وللجمع فى الأولين، والغيبة والخطاب فى الأخيرين، وكزيادة الهمزة والنون فى انكسر وانفتح للدلالة على المطاوعة، وكزيادة الهمزة فى أكرم للتعدية، والألف فى خاصم وقاتل، والتاء والألف فى تخاصم وتقاتل للدلالة على المشاركة .

فكل زيادة من هذه الزيادات دلت على معنى ولو حذفت لذهب المعنى المقصود بها من الكلمة.

٧ ـ الزيادة للإلحاق :

أى لإلحاق كلمة من الكلمات بأخرى لتصير مساوية لها فى عدد الحروف، ولتتبعها فى الاشتقاق، فإذا كانت فعلا، فإنه يساى بعد الإلحاق الفعل الملحق به فى الوزن وبتصرف تصرفه فى المصدر، وفى اشتقاق اسمى الفاعل والمفعول .

قالوا : سيطر يسيطر سيطرة فهو مسيطِر ومسيطَر .

وقالوا : شيطن يشيطن شيطنة فهو مشيطِن ومشيطَن .

أصلهما سطر وشطن، وزيدت الياء فيهما لإلحاقها بدحرج يدحرج فهو مُدَحْرِجٌ .

• • •

وإذا كان الملحق اسماً فإنه يتبع الملحق به فى أحكام التكسير والتصغير والنسب وغيرها، فكلمة (مهد) معروفة لكنهم زادوا فيها دالا إلحاقاً لها بجعفر، وقالوا مَهْدَدٌ ومَهَادِدُ، ومثل مهدد فى إلحاقها بجعفر ضيغم : فقد قالوا : ضياغم وضييغم .

المزيد:

بعد التكلم عن الزيادة نتكلم عما حلت به وهو المزيد .

والمزيد ما زيد على حروفه الأصلية حرف أو أكثر بمقتضى القوانين السابقة .

فإذا أردنا أن نزن كلمة زيد فيها حرف أو أكثر، فإننا نزن الحروف الأصلية فيها بمقتضى القانون السابق فى وزن المجرد، أما الزائد فهو على نوعين :

زائد بتضعيف حرف من حروف الكلمة الأصلية أو الزائدة .

وزائد بحرف أو أكثر من حروف سألتمونيها دون تضعيف .

فإذا كانت الزيادة بتضعيف حرف من الحروف الأصلية أو الزائدة، فإننا نضعف الحرف المقابل له فى الميزان، فقطّع ورصّع ونقّب وهذّب كلها وزنها [فَعّل] .

وجلبب وشملل ومهدد، كلها وزنها [فَعْلَل]

وهبيّخ وزنها [فعيّل]

وعطوّد وزنها [فَعَوّل]

ضعفت الياء والواو الزائدتان فى الميزان لتضعيفهما فى الكلمتين الموزونتين .

. . .

أما إذا كانت الزيادة بحرف أو أكثر من حروف سألتمونيها وليست بتضعيف حرف أصلى أو زائد، فإننا نضع الزائد بلفظه وفى موقعه من الميزان :

فوزن أكرم [أَفْعَل]

ووزن كارم [فاعِل]

وتفاهم على وزن [تَفَاعَل]

وانكسر [انْفَعَل]

وانتصر [افْتَعَل]

ومنتصر [مُفْتَعِل]

ومنصور [مفعول]

ومُسْتَخْرِج [مُسْتَفْعل]

واستخراج [اسْتِفْعال]

وانطلاق [انفعال] ... إلخ .

* * *

وإذا كانت الزيادة من النوعين (بالتضعيف، وبحرف أو أكثر من حروف سألتمونيها) أعطينا لكل زيادة حكمها عند الوزن، فتَهذَّب وتقطَّع وتوصَّل وتمطَّى وتربى كلها وزنها [تفَعَّل] .

* * *

وهذا الذى قلناه فى وزن المزيد واجب ومطلوب إذا كانت الأحرف الأصلية للكلمة صحيحة، ولم يحدث فيها إعلال ولا إبدال .

أما إذا كانت الكلمة معتلة وحدث فيها إعلال أو إبدال .

فمنه ما لا تجب مراعاته فى الميزان .

ومنه ما تجب مراعاته . على نحو ما سبق فى المجرد .

ونوضح ذلك فيما يأتى :ـ

التغير الذى لا تجب مراعاته فى الميزان

١ - الإعلال بالقلب :

كقلب الواو أو الياء ألفاً .

فإننا نأتى بالميزان على أصل الكلمة ولا نهتم بالتغيير الذى حدث، فوزن استقام واستطال، واستمال واستبان [اسْتَفْعَل] لا [اسْتَفَال] لأننا وزنا هذه الكلمات باعتبار أصلها الذى هو استقوم واستطول واستميل واستبين، دون مراعاة للتغيير الذى حدث لحروف العلة .

ووزن استرضى واستبقى [اسْتَفْعَل] .

لا [استفعى] للسبب نفسه .

٢ - الإعلال بالنقل :

وقد يسمى الإعلال بالتسكين وهو أن نسكن حرف العلة بنقل حركته إلى الساكن الصحيح قبله .

فإذا أردنا أن نزن كلمة حدث فيها إعلال بالنقل فإننا نزنها على أصلها قبل حدوث هذا الإعلال، وبناء على ذلك يكون وزن :ـ

يصون ويقوم ويدوم [يَفْعُل] .

ووزن يبيع ويميل [يَفْعِل] .

ولا نقول [يفُعْل] ولا [يَفِعْل] .

لأننا إنما نزنها على أصلها الذى هو يَصْـوُم ويَقْوُم ويَدْوُم، ويَبْيِعُ ويَبْيِن ويَمْيِل .

٣ - الإعلال بالنقل والقلب معاً :

وحكمه حكم كل منهما على حدة، أى أننا نزن الكلمة التى وقع فيها إعلال بالنقل والقلب معاً على أصلها قبل حدوث هذين الإعلالين فيها، فنقول فى وزن يخاف ويهاب [يَفْعَل] مراعاة لأصلها وهو يَخْوَف ويَهْيَب، ولا نقول [يفال] إلا على مذهب عبد القاهر كما مر فى المجرد .

٤ - الإبدال من تاء الافتعال وشبهه :

فالكلمة التى أبدلت فيها تاء الافتعال طاء توزن على أصلها قبل حدوث الإبدال .

فوزن اصطبر [افتعل] لأن أصلها اصتبر، فقلبت التاء طاء لوقوعها بعد الصاد .

ووزن اضطرب [افتعل] لأن أصلها اضترب فقلبت التاء طاء لوقوعها بعد الضاد .

ولا نقول فيهما [افطعل] لأن تاء الافتعال تقلب طاء إذا كانت فاء الكلمة صاداً أو ضاداً أو طاء أو ظاء، ووزن ازدهر واذدكر (افتعل) لا (افدعل) لأن تاء الافتعال تقلب دالا إذا كانت فاء الكلمة دالا أو ذالا أو زايا .

٥ - التغيير الذى يكون للإدغام :

فالكلمة التى يحصل فيها التغيير بسبب الإدغام توزن على أصلها قبل حدوث هذا التغيير كما قلنا وفعلنا فى الثلاثى المجرد .

فوزن اشتد (افْتَعَل) لا (افْتَعْل] ووزن مرد (مَفعَل) لا (مَفَعْل) ووزن مشتد (مُفْتَعِل) لا (مُفْتَعْل). وكذلك فى فعل الأمر .

فوزن اشتد (افْتَعِل) لا (افْتَعْل) .

* * *

التغيير الذى تجب مراعاته فى الميزان :

١ - الإعلال بالحذف

فالكلمة إذا حذف منها حرف، حذف ما يقابله فى الميزان كقولنا فى وزن : عدة وزنة وصلة (علة)، لأن أصلها وعدة، ووزنة، ووصلة، فلما حذفت الواو التى هى فاء الكلمة حذفنا الفاء من الميزان، فلا نقول إن وزنها (فِعْلَة) وإن كانت فى الأصل على هذا الوزن .

ونقول فى وزن يجد، يزن، يصل (يَعِل) ولا نقول إن وزنها (يَفعِل) وإن كانت فى الأصل يَوْجِد ويَوْزِن ويَوْصِل .

٢ ـ الإعلال بالنقل والحذف معاً :

وإذا حدث فى الكلمة إعلال بالنقل، وتبعه إعلال بالحذف وزنت على صورتها الأخيرة .

فوزن مقول (مَفُعْل) .

ووزن مبيع (مَفِعْل) .

وذلك لأن أصلهما مقوول ومبيوع على وزن (مفعول) فأسكنوا الواو الأولى والياء، ونقلوا حركتهما إلى الساكن الصحيح قبلهما فالتقى الساكنان وحذفت واو مفعول؛ لأنها حرف زائد، وهى أولى بالحذف من عين الكلمة هذا رأى سيبويه .

أما الأخفش فيقول : إنهما على وزن (مفول) لأنه يرى أن المحذوف منهما إنما هو عين الكلمة، وليس واو مفعول، وهى أولى بالحذف من واو مفعول لأنها (واو مفعول) زيادة أتى بها لمعنى هو المفعولية، وقد قلبت فى مبيع ياء بعد أن أسكنوا ياء مبيوع وألقوا حركتها على الباء، فانضمت الباء وبعدها ياء ساكنة فتحولت ضمة الباء كسرة لتناسب الياء، فلما حذفت عين الكلمة وجاءت واو مفعول وجدت الباء مكسورة، فقلبت ياء فرقاً بين ذوات الواو وذوات الياء .

ونميل إلى رأى الأخفش، فهو معقول أكثر من رأى سيبويه .

٣ـ القلب المكانى :

وقد مثلنا له فى المجرد بما يفيد معناه .

ونمثل له فى المزيد بما مثل به الخليل من نحو جاءٍ اسم فاعل من جاءَ ، وأصله جايىء على وزن (فاعل) بتقديم الياء التى هى عين الفعل على الهمزة التى هى لامه، فلو لم تقلب اللام مكان العين لأدى تركها إلى انقلاب الياء همزة، لأن القاعدة أن اسم الفاعل من الأجوف الثلاثى تقلب عينه همزة بعد ألف (فاعل) فتجتمع همزتان فى كلمة واحدة وذلك مستكره، فوجب تقدير القلب فيه فيصبح جائى على وزن (فالع) . ثم يعل إعلال قاض [١] .

فيصبح جاءٍ ووزنه (فالٍ) .

---

(١) قاض أصلها . قاض ي ن . استثقلت الضمة على الياء فحذفت الضمة، فالتقى ساكنان هما الياء والنون فحذفنا أولهما وهو الياء فصارت قاض ن وتكتب قاضٍ .

وإذا كان الجائى على وزن (فالع) فإن الجايىء على الأصل وقبل القلب وكذلك الجائىء على وزن (فاعل) .

ومثال آخر لفظ (واحد) .

لما كان هو الأصل وزناه (بفاعل) أما (حادى) وهو مقلوب (واحد) فإن وزنه (عالف) .

أى أننا أحدثنا فى الميزان نفس التغيير الذى حدث فى الموزون، وهو نقل فاء الكلمة إلى ما بعد لامها، ولهذا قلنا (عالف) .

من فوائد الميزان الصرفى

ونختم الكلام عن الميزان الصرفى بذكر بعض فوائده، وهى كثيرة؛ إذ به نتبين حال الكلمة وما طرأ عليها من تغيير . وبه نعرف عدد أصولها فنفرق بين الثلاثى والرباعى والخماسى . كما نعرف الحروف الزائدة ومواضعها . كل هذا بمجرد التلفظ بميزانها أى بأقل جهد متى كنا ملمين بقواعد هذا الميزان وأصوله .

فاذا قيل لنا أو أمامنا : إن وزن مُنْطَلِق هو (مُنْفَعِل) علمنا أن أصلها طلق، وأن الميم والنون زائدتان .

وإذا قيل لنا أو أمامنا إن جدول على وزن (فَعول)، وأن برثن على وزن (فُعْلُل) علمنا أن الواو فى جدول زائدة، وأن أحرف برثن كلها أصول .

وإذا قيل لنا أو أمامنا : إن وزن مرتد (مفتعل) بكسر العين، علمنا أنها اسم فاعل .

وإذا قيل لنا أو أمامنا : إن وزن مشتق (مفتعل) بفتح العين علمنا أنها اسم مفعول .

* * *

ومن عجب أننا نحصل على هذه الفوائد وغيرها بأوجز عبارة، وأوضح أسلوب، دون تفسير أو شرح، وإن ذلك ليعد ـ وبحق ـ مظهراً من مظاهر عبقرية اللغة العربية [1] .

---

(١) انظر « أبنية الصرف فى كتاب سيبويه » للدكتورة خديجة الحديثى ص ٨٧ ـ ١٢١ طبعة مكتبة النهضة بغداد سنة ١٩٦٥ م .

متن اللغة العربية

المقصود بمتن اللغة العربية هو نصها الذى تضمنته معاجمها اللغوية . وهذه المعاجم نوعان : معاجم ألفاظ ومعاجم معان .

معاجم الألفاظ

وقد مرت بثلاث مراحل هى :

المرحلة الأولى :

مرحلة التقليبات :

وأهم كتبها :

١ - كتاب العين .

للخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى (١٠٠ - ١٧٤ هـ) مؤلف العروض وأستاذ سيبويه، كان هو وسيبويه زعيمى مدرسة البصرة فى حين كان الكسائى والفراء زعيمى مدرسة الكوفة .

ولم يكن الخليل ذا مال، ومع هذا فقد رفض أن يكون مؤدباً لولد الأمير سليمان بن عبد الملك الأموى حينما طلب منه ذلك، وقال :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال

ومن شعره هذا البيت الذى أعطاه لأحد علماء اللغة ممن لم يكن عنده استعداد لتعلم العروض طالباً إليه تقطيعه :

إذا لم تستطع شيئاً فدعــــه وجــاوزه إلـــى مـــا تستطـيــع

وقد فطن اللغوى إلى غرض الخليل، وترك علم العروض الذى لم يستطع فهمه .

قال ابن المقفع عنه : « لقيت فيه رجلا عقله أكبر من علمه » .

ويخبرنا خلف بن المثنى أنه قد اجتمع فى البصرة فى وقت واحد عشرة من أكابر العلماء فى مختلف الفنون أولهم الخليل بن أحمد اللغوى، وثانيهم بشار بن برد(١) .

* * *

(١) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٩ .

وقد رتب الخليل معجمه ترتيباً مخرجياً .

ولما كان الحلق هو أعمق المخارج فقد بدأ بحروفه، وأكثر من ذلك رتب هذه الحروف فيما بينها بحسب موقعها من الحلق .

فأقصى الحلق مخرج للهمزة والهاء، ووسطه مخرج للعين والحاء، وأدناه مخرج للغين والخاء.

وكان من المنتظر والحالة هذه أن يبدأ الخليل معجمه بحرف الهمزة وأن يسميه لذلك كتاب الهمزة، ولكنه وجد أن الهمزة صوت معرض للتغيرات قد يسهل، وقد يحذف، فلم يبدأ بها بل أكثر من ذلك جعلها بين الواو والياء، أى قبل الباب الأخير من الكتاب .

أما الهاء، فما هى إلا إرسال الهواء خارج الحلق، وبعبارة أخرى : هى صوت مهموس خفى.

* * *

ولما وصل إلى وسط الحلق وجد العين والحاء فاختار العين لنصاعتها ووضوحها، أى لكونها حرفاً مجهوراً، أما الحاء فحرف مهموس .

ويضيف الدكتور عبد الله درويش إلى ذلك أن العين بجانب كونها حرف هجاء تعنى العين الباصرة، وعين الشىء أى جوهره وكنهه .

أما المستشرق الإنجليزى إدوارد وليم لين (١٨٠١ - ١٨٧٦) وهو من أعلم المستشرقين بالمعاجم العربية، فيذكر أن تكرار حرف العين يكون صوتاً يشبه بعبعة الجمل ويرى أن ذلك من أبرز الخصائص العربية [١] .

ومهما يكن من أمر فقد ارتضى الخليل حرف العين عنواناً لكتابه وجعله موضوع الباب الأول منه، وأتى ببقية الأبواب فى أثره بمعدل باب لكل حرف، وهى مرتبة هكذا :

ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ب ف م / و ء ى .

* * *

(١) المعاجم العربية ص ٧٠ والبحث اللغوى عند العرب ص ٢٢٥ .

والخليل يعرض فى كل باب الكلمات المشتملة على حرفه مراعياً حروفها الأصلية وحدها، فكلمة (مفتاح) مثلا نبحث عنها فى الثلاثى . وكلمة (زعفران) نبحث عنها فى الرباعى .

وعلى ذكر الثلاثى والرباعى، ننبه إلى أن عدد حروف الكلمة كان له دخل فى تحديد موقعها داخل نطاق بابها :

الثنائى

فالثلاثى الصحيح

فالثلاثى المعتل

فاللفيف

فالرباعى

فالخماسى

وكان يعالج الكلمة ومقلوباتها فى موضع واحد، وقد سميت هذه المرحلة بمرحلة التقليبات من أجل ذلك .

وهى تعنى أن الخليل لم يجمع مفردات معجمه بتتبع هذه المفردات فى المؤلفات السابقة، أو بأخذها من شفاه الرواة، وإنما جمعها بطريقة منطقية رياضية، فقد لاحظ أن الكلمة العربية قد تكون ثنائية، وقد تكون ثلاثية، وقد تكون رباعية، وقد تكون خماسية، وفى كل حالة إذا أمكن تبديل حروف الكلمة إلى جميع احتمالاتها بالانتقال من حرف هجائى إلى الذى يليه، وأمكن تقليب أماكن هذه الحروف إلى جميع أوجهها الممكنة، يكون الحاصل معجماً يضم جميع كلمات اللغة من الناحية النظرية .

ولما لم تكن هناك لغة تستخدم جميع إمكانياتها النظرية، فقد حرص الخليل على التفرقة بين المستعمل والمهمل من هذه الأوجه، وساعده على ذلك ذكاؤه وذوقه ودقة ملاحظته وثقافته اللغوية، ومعرفته بالتجمعات الصوتية المسموح بها فى اللغة العربية [1] .

---

(١) البحث اللغوى عند العرب ص ١٣٦، ودلالة الألفاظ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦، والمعاجم العربية ص ٧٣ ـ ٧٧، وكلام العرب ص ١٢٩ .

٢ـ الجمهــرة :

أى جمهرة الكلام لمحمد بن الحسن بن دريد البصرى (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) كان مشهوراً بسعة الحفظ وقوة الذاكرة، أخبر هو عن نفسه قال : كلفنى شيخى يوماً بحفظ معلقة الحارث بن حلزة حتى يرجع من غذائه، فلما رجع وجدنى قد حفظت الديوان كله .

وهو يعلل تسمية كتابه بالجمهرة بقوله فى مقدمته « وألقينا المستنكر الوحشى واستعملنا المعروف وسميناه كتاب الجمهرة؛ لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب » .

ولم يرتب ابن دريد الجمهرة على حسب مخارج الحروف، فقد رأى أن ذلك شاق على الباحث المبتدىء، وإنما رتبها بحسب ورودها فى الكلمة، فمثلا المجموعة التى تتكون من الحروف (د.ع.ق) مثل (قعد وعقد) تجدها فى كتاب العين تحت الحرف (ع) لأنه أسبق الثلاثة مخرجاً .

أما ابن دريد فقد وضعها تحت الحرف (د) إذ هو أسبق الثلاثة فى الأبجدية العربية .

وفيما عدا ذلك فإن كتاب الجمهرة يشترك مع كتاب العين فى التقليبات، وفى الترتيب من الثنائى فصاعداً [١] .

* * *

ولابن دريد كتابان آخران هما : كتاب الاشتقاق وكتاب الملاحن .

وقد اهتم فى الاشتقاق بعقد الصلة بين الاسم العلم وما يشبهه مادة من الصفات أو الأفعال، وقد جعله شغفه بالاشتقاق يفترض أن الأعلام كلها منقولة وأن لها دلالات أخرى بجانب دلالاتها على مسمياتها يقول : « الحتات بن يزيد حتات فعال من حتت الورق عن الشجر إذا نفضته، وفرس حتيت أى سريع » [٢] .

أما « الملاحن » فله صلة بعلم الفقه وبخاصة باب الحيل، كان الرجل إذا حلف يميناً ألا يفعل شيئاً معيناً ثم أراد أن يفعل هذا الشىء نفسه فإنه يفعله ويجعل يمينه على معنى آخر للكلمة التى حلف ألا يعمل مفهومها المعين .

---

(١) جمهرة اللغة لابن دريد طبعة حيدر أباد ١٣٤٦ هـ و دلالة الألفاظ ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠ والبحث اللغوى ص ١٥٢ ـ ١٥٣، وكلام العرب ص ١٣٠ والمعاجم العربية ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) الاشتقاق ص ١٤٨ .

ويخرج الحالف من دائرة اللحن إذا ادعى أنه لم يقصد المعنى المتعارف، وإنما قصد المعنى الفلانى من معانى الكلمة [١] .

مثلا مهندس فى شركة يطلب منه رئيسه بها أن يؤدى عملا يراه المهندس غير لائق به فيحلف قائلا : والله ما أنا عامل، أى ما أنا بفاعل ما طلب منى .

ثم يرى نفسه مضطراً إلى عمل ما حلف على عدم عمله، فيعمله، ويدعى أنه كان يقصد بحلفه أنه ليس عاملا فى الشركة بل مهندساً بها .

٣- تهذيب اللغة :

لأبى منصور الأزهرى (٢٨٢ ـ ٣٨٠ هـ) .

وهو يتفق مع العين فى نظام التقليبات، ومراعاة الأبجدية الصوتية المبنية على مخارج الحروف، وفى تقسيم الكلمات بحسب الكمية من الثنائى إلى الخماسى .

ويزيد الأزهرى على الخليل بالإكثار من الروايات، والنقل من اللغويين وهذا طبيعى فقد تأخر الزمن به مما حتم عليه النقل عن الماضى [٢] .

٤ ـ البارع :

لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ جاء إلى بغداد من مسقط رأسه بأرمينية سنة ٣٠٣ هـ وسنة خمس عشرة سنة .

وفى سنة ٣٢٨ هـ أجبرته قسوة الحياة على أن يهاجر إلى الأندلس .

وفى الأندلس عرف بالبغدادى بدلا من القالى، واتصل بالخليفة عبد الرحمن وابنه الحكم فجرى السعد فى ركابه .

* * *

(١) المعاجم العربية ص ٢١ .

(٢) المعاجم العربية ص ٢٦ ـ ٢٩، ودلالة الألفاظ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢، والبحث اللغوى ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

وعن كتابه البارع يقول تلميذه أبو بكر الزبيدى : ـ إنه قاموس واسع قد شمل اللهجات كلها، فاق كتاب العين بأربعمائة ورقة، كما أن القالى ذكر فيه بعض أصول أوضح أنها مستعملة وكان الخليل فى العين قد ذكر أنها مهملة .

وممن أثنوا على البارع جلال الدين السيوطى قال : ـ « إن من أصح القواميس التى رأيتها بارع القالى » .

. . .

وترتيب المفردات فى البارع .

كترتيبها فى العين من حيث التقليبات، ومراعاة الكمية من الثنائى إلى الخماسى .

لكن ترتيب الأبجدية الصوتية فى البارع لا يتفق تماماً مع ترتيبها فى العين .

وانظر ثم قارن : ـ

العين : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ى .

البارع : هـ ح ع خ غ ق ك ص ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ن ف ب م و ا ى [١] .

٥ ـ مختصر العين :

لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى المتوفى بقرطبة سنة ٣٧٩ هـ كان مؤدباً لولد الخليفة الحكم المستنصر بالله وولى عهده هشام .

ذكر ابن خلدون مختصر العين فقال : ـ كان الخليل أول من ألف من اللغويين فى وضع معجم أبجدى وسماه « العين »، وضعه مفصلا مطولا، وقد اختصره الزبيدى بطريقة بديعة حيث حذف ما يستغنى عنه مبقياً على روح الكتاب وأصله [٢] .

وأورد السيوطى فى المزهر قول أبى ذر الخشنى : إن من بين المختصرات التى فاقت أصولها مختصر ابن هشام لسيرة ابن إسحق، ومختصر الزبيدى للعين، ثم استطرد فقال : إن الناس قد عكفوا على قراءة المختصر وفضلوه على العين .

---

(١) المعاجم العربية ص ٣٠ ـ ٣٢، دلالة الألفاظ ص ٢٤١ .

(٢) المقدمة ص ٤٥٩ طبعه بيروت سنة ١٩٠٠ .

ويذكر السيوطى لذلك أسباباً منها :ـ

(ا) أنه حذف منه الكلمات المصحفة والأبنية المختلفة .

(ب) أنه حذف منه الشواهد .

(جـ) أنه أصغر حجماً (١) .

وفى هذا الذى قاله ابن خلدون والخشنى والسيوطى الرد ـ أبلغ الرد ـ على ما ذهب إليه الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس من أن مختصر العين صورة ممسوخة للمعجم الأصلى (٢) .

. . .

وواضح من تسمية الزبيدى لكتابه بمختصر العين أنه لم يدع أن كتابه يفوق كتاب العين كما فعل من سبقه إذ توحى تسميتهم لكتبهم التى ألفوها فى متن اللغة أنها تفوق كتاب العين من وجه أو آخر، فالأزهرى يسمى كتابه « تهذيب اللغة » .

والقالى يسمى معجمه « البارع » .

أما الزبيدى فلا ينتحل لكتابه اسما فيه إظهار لشىء من التفوق بل يسميه بكل بساطة «مختصر العين» حيث إنه يتفق من أغلب الوجوه ـ كما اتفق ما سبقه من المعاجم ـ مع كتاب العين (فى الترتيب الإجمالى، وفى التعبير عن شرح المفردات .... إلخ) .

. . .

وللزبيدى كتاب لغوى آخر هو [الاستدراك على أبنية سيبويه] وموضوع هذا الكتاب تعليقات على ما ذكره سيبويه فى باب « أبنية الأسماء » وهو أحد أبواب كتابه « الكتاب » وقد أبدى الزبيدى ملاحظاته على هذه الأبنية من نواح عدة وسارت خطته فيها على مبدأين أساسين هما :ـ

---

(١) المعاجم العربية ص ٣٥ ـ ٤٠ .

(٢) دلالة الألفاظ ص ٢٤٢ .

١ ـ لم يوافق سيبويه فى العدد بل زاد عليه أو نقص عنه .

يقول سيبويه مثلاً : ـ إن النون تزاد فى عشرة أبنية فيذكر الزبيدى أنه عثر على أبنية أخرى مما يرتفع بالعدد إلى اثنى عشر بناء، وهو يذكر الزيادة تحت عنوان فرعى يعبر عنه بقوله (ومما يستدرك عليه) وقد أخذ اسم الكتاب من هذه الجملة .

٢ ـ يأخذ فى شرح المفردات الغريبة تحت عنوان (غريب الباب) وهو يشرحها بإسهاب لانجده فى مختصر العين [١] .

٦ ـ المحكم :

واسمه الكامل (المحكم والمحيط الأعظم) وقيل : بل اسمه (المحكم فى لغة العرب، وجمل من غريب الكتاب والحديث، وفنون من النحو والأدب) [٢] .

مؤلفه هو أشهر علماء اللغة فى الأندلس، من يعد بحق معجزة عصره، أبو الحسن على بن إسماعيل المعروف بابن سيده، والمتوفى سنة ٣٥٨ هـ، تلقى علوم اللغة عن والده الذى تتلمذ على الزبيدى، والزبيدى تلميذ القالى، فابن سيده قد أخذ العلم كابرا عن كابر، وإذا كان الله قد حرمه من نعمة البصر، فقد عوضه عنه بذاكرة قوية جداً، قالوا : ـ كان أحفظ من ابن دريد [٣] .

وقد التزم فى (المحكم) طريقة العين من حيث التقليبات والأبجدية الصوتية، لكنه يفوق ـ من حيث الكمية والقيمة اللغوية ـ كل الكتب التى تقدمته بما فى ذلك كتاب (العين) .

وعن قيمته اللغوية يقول المستشرق لين Lane فى مقدمة معجمه (مد القاموس) (لم يقع لنا بعد عهد الصحاح قاموس أعظم من محكم ابن سيده، وإن قيمته لترتفع إلى الذروة من حيث الصحة والإشارات الانتقادية، والأمثلة الكثيرة، والشواهد العربية الصحيحة، وقد اعتمدت عليه كثيراً فى تأليف معجمى) [٤] .

ولم يكن ابن سيده غافلا عن قيمة المحكم فهو يعتز به، ويرى أنه جنبه أموراً لا غناء فيها، وضمنه أشياء لا غناء عنها [٥] .

---

(١) المعاجم العربية ص ٣٦ .

(٢) كلام العرب للدكتور حسن ظاظا ص ١٣٨، وقد بدىء فى طبع المحكم وظهرت منه بعض الأجزاء .

(٣) المعاجم العربية ص ٤١ .

(٤) المعاجم العربية ص ٤٤، ودلالة الألفاظ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

(٥) البحث اللغوى ص ١٥٠ .

المرحلة الثانية

مرحلة القافية

وقد استهلها إسماعيل بن حماد الجوهرى (٣٢٣ ـ ٣٩٣ هـ) بكتابه .

١ ـ (تاج اللغة وصحاح العربية) :

فهو لم يتبع فيه نظام التقليبات أو الأبجدية الصوتية، وإنما اتبع الترتيب الأبجدى العادى لكن باعتبار آخر حرف أصلى فى الكلمة .

وقد سمى هذا النظام لذلك نظام القافية، وأطلقت على المرحلة كلها هذه التسمية .

ولئن كان هم أصحاب المعاجم قبل الجوهرى إحصاء المفردات أو المواد اللغوية، وتسجيلها فى كتبهم كل على حسب جهده وطاقته، فإن الجوهرى لم يكن يعنيه ذلك بعد أن رأى أنَّ بُعْدَ العهد بالعربى الفصيح قد أدخل على العربية ما ليس منها، وبلغ الاختلاط فى هذا المجال حداً اشتبه معه الصحيح بغير الصحيح، وكان هذا هو ما حدا به إلى تأليف كتابه الذى جمع فيه أربعين ألف مادة، والذى اشتهر بالصحاح وهى تضبط إما بكسر الصاد جمع صحيح، وإما بفتحها مفرد بمعنى صحيح مثل براء وبرىء .

ولعل اشتهاره بالصحاح أن يكون تقليداً لأهل الحديث، أجل لم لا يكون للجوهرى فى اللغة صحيح كصحيح البخارى فى الحديث ؟ ! ! .

وقد تفلسفوا أو تعسفوا فاختاروا كلمة لغوية مرادفة لكلمة صحيح، هى الصحاح .

وعلى كل فقد ساعدت الظروف الجوهرى حتى جاء كتابه صحيحاً بحق .

ونوضح ذلك بأن الجوهرى قد تتلمذ على خاله اللغوى إسحق بن إبراهيم الفارابى مؤلف كتاب ديوان الأدب فى اللغة، وأنه قد قرأه عليه بفاراب، كما قرأه على أبى السرى محمد بن إبراهيم الأصبهانى بأصبهان، وعلى أبى سعيد السيرافى فى بغداد، وقد صار عنده لهذا من صحاح اللغة .

كما نوضحه بأنه قد سمع من الأعراب فى البدو والحضر، حيث رحل إلى الأماكن التى كان فيها بقية من قبيلتى ربيعة ومضر (١) .

ونظام القافية يقدر المتأدبين على السجع السهل فى النثر، وعلى القافية المتمكنة فى الشعر.

يقول الدكتور درويش : ولعلنا فى حل من أن نضيف إلى هذا سبباً آخر هو أن أى ترتيب لابد أن يخضع لنظام الزوائد والأصول من الحروف فى المفردات، ولقد أدى هذا إلى الارتباك أحياناً وخصوصاً فى الرباعى والخماسى حيث يختلف موضع الكلمة فى المعجم، تبعاً لاعتبار أى الحروف يكون الزائد، وما موضعه، وأنه قد يكون من الصعب تمييز ذلك أول الكلمة ووسطها فى بعض الأحيان، على حين أن الزوائد فى الآخر تكاد تكون محصورة فى :

١ ـ علامة التثنية والجمع .

٢ ـ علامة التأنيث من تاء أو ألف .

* * *

وقد سار الجوهرى فى ترتيب الأبجدية على النظام المتداول بيننا الآن عدا حرف واحد هو الواو، إذ وضعه بين النون والهاء فأصبحت الحروف آخر الأبجدية هكذا (... ل م ن و هـ ى) (٢)

* * *

ونذكر هنا بما سبق أن قلنا من أن الرازى قد اختصر كتاب الصحاح وسمى مختصره (مختار الصحاح) .

ثم نضيف أن هذه التسمية خادعة، لأنها توحى بأن الرازى قد اقتصر على اختيار بعض مفردات الصحاح، والحقيقة خلاف ذلك، فقد أضاف الرازى إلى ما انتقاه من الصحاح مفردات أخرى نقلها عن تهذيب الأزهرى وغيره .

---

(١) البحث اللغوى ص ١٦٥ والمعاجم العربية ص ٩١ .

(٢) المعاجم العربية ص ٩٣ ـ ٩٤ وانظر كلام العرب ص ١٣٢، ودلالة الألفاظ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤، والبحث اللغوى ص ١٦٢ ـ ١٨٢ .

ولقد كان مختار الصحاح كالصحاح فى بنائه على القافية إلى أن أعادت وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٠٥ م ترتيبه، فجاء كما هو فى طبعته التى بين أيدينا على نظام الأبجدية العادية، باعتبار أول حرف أصلى فى الكلمة .

قام بذلك الأستاذ محمود حاطر .

وراجعه الشيخ حمزة فتح الله (١) .

٢ - لسان العرب :

لابن منظور [٦٣٠ - ٧١١ هـ]

على الرغم من طول المدة بين الجوهرى وابن منظور، ومن ظهور بعض المعاجم مرتبة على الأبجدية العادية وعلى حسب أوائل الكلمات كالمجمل لابن فارس وأساس البلاغة للزمخشرى إلا أن ابن منظور لم يشأ أن يتحول عن ترتيب الجوهرى إلى ترتيب المجمل والأساس بل أكثر من ذلك يظهر أنه كان قد انتوى وضع كتابه على أساس الأبجدية الصوتية فقد جعل عمدة مراجعه معجمين مطولين مؤلفين على هذا النظام هما : تهذيب الأزهرى، ومحكم ابن سيده .

ولذا يعد اللسان من بعض الوجوه مكرراً لما ورد فيهما .

لكن ابن منظور رأى أن ترتيبهما صعب ويحتاج إلى دراية تامة بعلوم اللغة لمن يريد الانتفاع بهما، وقد عدل لهذا عن ترتيبهما إلى ترتيب الصحاح للجوهرى .

فكلماته مرتبة على حروف المعجم بحسب أواخرها، بعد تجريدها من الزوائد، وردها إلى أصولها .

* * *

ونذكر لابن منظور :-

توسعه فى الشرح .

وإفاضته فى ذكر أسماء الرواة والعلماء واللغويين والنحويين وكثرة شواهدها وتنوعها (١).

(١) كلام العرب ص ١٣٦ والمعاجم العربية ص ٩٧ والبحث اللغوى ص ١٨٢ .

(٢) كلام العرب ص ١٣٥ والمعاجم ص ٩٩ - ١٠١ والبحث اللغوى ص ١٨٣، ولسان العرب طبعة بولاق سنة ١٣٠٠ هـ .

٣ ـ القاموس المحيط :

للفيروزابادى [٧٢٩ ـ ٨١٧ هـ] .

شرح فى مقدمته ظروف تأليفه له فقال : ـ وكنت برهة من الدهر ألتمس كتاباً جامعاً بسيطاً ... ولما أعيانى الطلاب شرعت فى كتابى الموسوم « باللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب » وضممت إليهما زيادات، غير أنى خمنته فى ستين سفراً يعجز تحصيله الطلاب، وسئلت تقديم كتاب وجيز على ذلك النظام، فصرفت صوب هذا القصد عنانى، وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد مطروح الزوائد، ولخصت كل ثلاثين سفراً، وضمنته خلاصة ما فى العباب والمحكم وأضفت إليه زيادات منَّ الله تعالى بها وأنعم» (١) .

. . .

وهو مرتب على حسب أواخر الكلمات كالصحاح واللسان لكنه فى ترتيب الفصول داخل كل باب قد وضع حرف الواو بعد حرف النون ووضع بعده الهاء ثم الياء وعلل ذلك بأنه من قبيل الاحتياط لإحكام الفصل بين ما أوله واو وما أوله ياء .

وليس ثمة شك فى أن مظاهر الدقة كثيرة فى هذا المعجم وهو أول معجم استخدم الرموز توخياً للإيجاز وبسبيل من الإيجاز عدم تكريره الكلمة مع كل معنى من معانيها .

. . .

وذكر الزبيدى أن عدد الكلمات فيه ستون ألفاً، ولما شك الشدياق فى ذلك أحصى مواد النصف الأول منه فوجدها ٥٤٥٠ مادة .

ومع هذا الحشد الهائل من الفوائد فقد جاء فى أقل من ربع حجم اللسان، وكان ذلك سبباً فى اشتهاره وانتشاره (٢).

. . .

---

(١) المحكم لابن سيده، أما العباب فمؤلفه هو رضى الدين الحسن بن محمد الحسن بن حيدر العدوى العمرى الغانى (٥٧٧ ـ ٦٥٠ هـ) ألف « تكملة الصحاح » و« العباب » ثم جمعها فى كتاب واحد سماه « مجمع البحرين » وانظر علم اللغة للدكتور وافى ص ٦٨ وفقه اللغة له ص ٢٨٢ .

(٢) كلام العرب ١٣٧، والبحث اللغوى ص ١٨٣ ـ ١٨٤، دلالة الألفاظ ص ١٤٧، والمعاجم العربية ص ١٠٢ ـ ١٠٦ .

٤ ـ تاج العروس من جواهر القاموس :

ألفه صاحبه السيد محمد المرتضى الزبيدى فى القرن التاسع عشر الميلادى [توفى ١٢٠٦ هـ ـ ١٨٨٤ م]، وهو لذلك آخر المعاجم المطولة التى اتبعت نظام القافية .

. . .

والأصل فيه أنه شرح لكتاب القاموس، لكن شخصية الزبيدى قد طغت عليه حتى جعلته كتابا مستقلا، ومعجما قائما بنفسه، ولا عجب؛ فقد ذكر الزبيدى أنه اعتمد فى تأليفه على ما يقرب من خمسمائة مرجع .

وتشمل إضافات الزبيدى إلى القاموس ما يأتى :ـ

١ ـ ذكر الشواهد التى أغفلها القاموس .

٢ ـ رد بعض الاقتباسات إلى أصولها أو مصادرها الأولى .

٣ ـ الاستدراك على الفيروزا بادى فيما أغفله من مواد أو كلمات أو معان .

وكان من عادة الزبيدى أن يختم المادة بما استدركه قائلا :ـ ومما يستدرك عليه (١) .

. . .

وإذا كان الزبيدى قد شرح القاموس بكتابه « تاج العروس » فإن أحمد فارس الشدياق [١٨٠٤ ـ ١٨٨٨ م م] قد ألف كتابا سماه :

الجاسوس فى نقد القاموس

ومن المسائل التى ناقش فيها الفيروزا بادى :ـ

١ ـ ترتيب المفردات فى الكتاب .

٢ ـ وضع المشتقات تحت المادة الواحدة .

٣ ـ التعريفات وشرح المفردات .

---

(١) البحث اللغوى ص ١٨٥ والمعاجم اللغوية ص ١٠٧ ـ ١١١ .

٤ ـ تعليقات القاموس على ما ذكره الصحاح .

٥ ـ الفصيح فى اللغة .

٦ ـ صيغ المطاوعة .

والشدياق كتاب لغوى آخر هو :ـ

سر الليال فى القلب والإبدال

طبق فيه النظرية الرابعة من نظريات نشأة اللغة :ـ

وأيضاً طبق فيه ما يعرف بالنظرية الثنائية .

وهى النظرية التى تقول : إن أصل الكلمات حرفان فقط ثم يتفرع عن كل أصل أو مقلوبه مواد أخرى، ولكنها جميعا تشترك فى معنى واحد هو ما يعتبر أصلا لكل تلك المواد .

وقد مثل الشدياق بكلمة « قط » فذكر أنها حكاية لصوت القدوم وما يشبهه حين تقطع به الأخشاب .

ومثلها فى اللغة الإنجليزية كلمة cut لفظا ومعنى ورتب على هذا أن المواد : قطف . قطع . قطم . قضم . طش كلها متفرعة من الأصل (قط) .

كما أنه وجد أن بعضها قد يتبادل الموضع مثل : جذب، جبذ . [illegible] . يئس . والمرسح، والمسرح[1] .

---

(١) المعاجم العربية ص ١١٢ ـ ١١٨ .

متن اللغة العربية

مرحلة الترتيب الأبجدى العادى

أولا : معاجم قديمة .

١ - المجمل .

٢ - المقاييس .

لأبى أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى [٣٢٩ - ٣٩٥] .

* * *

فى أواخر القرن الرابع الهجرى ظهر هذان المعجمان، وكان ترتيب كلماتهما هو الأول من نوعه، إذ التزم مؤلفهما نظام الأبجدية العادية :-

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ... إلخ .

* * *

والمؤلف كما هو واضح من اسمه فارسى الأصل، إلا أنه كان متشيعا للعرب ومخلصا لهم، وقد بلغ من مركزه العلمى أن استدعاه إلى (الرى) فخر الدولة بن بويه لتأديب ولده (مجد الدولة)، كما كان له من المكانة الأدبية ما جعله أستاذاً للأديبين الكبيرين : الصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمذانى .

* * *

فى المجمل كان ابن فارس يعقد بابا لكل حرف من حروف الهجاء يقول مثلا : باب الدال وما بعدها .

وكان المتبادر إلى الذهن أن يبدأ هذا الباب بالدال والهمزة مع بقية حروف الهجاء، ثم الدال والباء، ثم الدال والتاء بنفس النسق، ولكن أحمد بن فارس استعمل عبارة (وما بعدها) فى غير ما تبادر إلى ذهننا، فقد أراد بها ما بعد الدال فى الترتيب الأبجدى وهو الذال والراء والزاى

والسين ثم الدال والراء، ثم الدال والزاى، وهكذا إلى الدال والياء . وعند انتهاء الأبجدية يعود ثانية إلى أولها فيذكر الدال مع الهمزة ثم مع الباء، ثم مع التاء ثم مع الثاء، إلى أن يختم بالدال مع الخاء .

* * *

هذا عن المجمل من حيث تنظيمه .

أما من حيث قيمته *اللغوية*، فقد ذكر *ابن فارس* فى مقدمته أنه وجد مفردات *اللغة* العربية فوق الحصر، وأنه من غير الممكن جمعها كلها فى كتاب واحد، ولهذا لم يهتم بذكر النوادر والغريب، وإنما اقتصر على ذكر المستعمل من الألفاظ فى عصره .

* * *

المقاييس .

ونظام المفردات فيه مثل نظامه فى المجمل .

أما منهجه فيتلخص فى أن المؤلف حاول فيه أن يوجد لكل مادة معنى مشتركا عاما يمكن أن تدمج فيه كل المعانى الفرعية، حقيقية كانت أو مجازية .

وليس هذا فقط، بل إنه حاول كذلك أن يربط بين معانى المشترك اللفظى ليدمجها هى الأخرى فى المعنى العام وعلى هذا فإنه إذا ورد مفرد جديد لم يكن مستعملا من قبل، ولكن له أصلا ومادة وجد منها بعض المشتقات، فإنه يبيحه ويعلق عليه بقوله : والقياس يقتضيه، أو والقياس لا يأباه، ومن هنا جاءت التسمية .

وبمقتضى هذه النظرية يمكن لنا نحن المحدثين أن نذكر أو أن نستعمل كلمة (تصنيع) وإن لم ترد فى المعاجم السابقة، لانه قد ورد أصل المادة [ص ن ع] وكثير من مشتقاتها .

وقد اعتمد المجمع اللغوى فى معجمه الكبير على آراء ابن فارس فى ذكر المعانى العامة لمواد اللغة [١] .

* * *

(١) المعاجم اللغوية ص ١٢١ ـ ١٢٥ .

ومن كتب ابن فارس التى لها صلة بمعجميه خاصة، وبمتن اللغة عامة (الصاحبى) و (كتاب الثلاثة) والاسم الكامل للصاحبى هو :-

(الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها) .

وهو أول كتاب كامل من نوعه تعرض فيه مؤلفه للمسائل اللغوية الهامة، وقد اتخذه السيوطى فيما بعد أساسا لكتابه (المزهر) .

. . .

أما (كتاب الثلاثة) فقد جمع بعض المواد اللغوية التى تتشابه فى كل منها معانى الأصول الثلاثة مهما كان وضعها .

. . .

٣ - أساس البلاغة .

للامام الكبير جار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى [٤٦٧ - ٥٣٨ هـ]، وهو ليس بحثا فى البلاغة كما قد يفهم من عنوانه، ولكنه معجم لشرح المفردات اللغوية .

. . .

والفكرة الأساسية فيه هى التفرقة بين المعانى الحقيقية والمعانى المجازية للألفاظ، إيمانا من مؤلفه بأن ناشئة عصره بحاجة إلى كتاب تبسط فيه الألفاظ العربية، وتوضح معانيها حقيقية كانت أم مجازية .

قال : - ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع فى عبارة المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلقين من التراكيب التى تملح وتحسن، ولا تنقبض عنها الألسن .

ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف، وتعريف مدارج الترتيب والترصيف بسوق الكلمات متناسقة لامرسلة بددا، ومتناسبة لا طرائق قددا، مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية إلى مراشد حر المنطق الدالة على ضالة المنطيق المفلق .

ومنها تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة، والكناية عن التصريح [1] .

* * *

وأساس البلاغة بهذا الذى وصفه مؤلفه به يقدم لنا عنصرين هامين من عناصر الخلق الأدبى .

وهذان العنصران هما :ـ

١ ـ أثر الاستعمال فى حياة الكلمة .

٢ ـ الإيحاء الذى يكون أو ينبغى أن يكون للكلمة .

* * *

الفائق فى غريب الحديث .

والكشاف فى تفسير القرآن الكريم .

أما الفائق فقد جمع فيه الزمخشرى مفردات الحديث المحتاجة إلى إيضاح ورتبها على حسب الأبجدية العادية .

وأما الكشاف فعلى الرغم من أنه كتاب فى تفسير القرآن الكريم إلا أن الفكرة البلاغية التى كانت متسلطة على الزمخشرى وهى إثبات الإعجاز للقرآن عن طريق بيان أوجه البلاغة فى أسلوبه، هذه الفكرة قد أدته إلى عدم الموافقة على بعض الروايات التى تثبت أن لله تعالى يداً ولكن لا كأيدينا، أو أنه تعالى مستو على العرش حقيقة .

كل أولئك وأمثاله كان فى نظره مجازا عبر عنه بكلمة « تمثيل » .

. . .

ومن التأكيد المفيد القول بأن ترتيب الكلمات فى معجمات هذه المرحلة قديمة كانت أو حديثة إنما هو الترتيب المبنى على أول حرف أصلى فى الكلمة .

---

(١) مقدمة المؤلف صفحتى ك ، ل من طبعة إحياء المعاجم العربية .

ثانيا : معاجم حديثة

أمكن للغويين المحدثين أن يعيدوا وضع المعجم العربى مستعينين فى ذلك بخبرات القرون ضية وبالثقافة الأوربية الحديثة .

* * *

وتمتاز المعاجم الحديثة إلى جانب ترتيبها على أساس الأبجدية العادية، بأنها واضحة العبارة كاملة الشواهد مدعومة السند بالروايات الموثقة .

وسنقف منها عند :-

١ - محيط المحيط : - وهو جزءان كبيران .

ألفه العالم اللغوى اللبنانى بطرس بن يونس بن عبد الله البستانى [١٨١٩ - ١٨٨٣] بعد أن وجد أن اللغة العربية فى أمس الحاجة إلى قاموس عصرى سهل الاستعمال، ولما كان القاموس المحيط صعب الاستعمال لترتيبه المبنى على القافية، فقد ألف كتابه « محيط المحيط » مشتملا على القاموس وزيادة .

ولندعه هو يتكلم قال : - « ولما كان أملنا جمع كل ما فى القاموس المحيط للفير وزا بادى، وكل ما فى كتب اللغويين . فقد دونا كل ذلك فى كتاب وأسميناه « محيط المحيط » .

ألحقت فيه كثيراً من الفوائد والقواعد والشوارد وغير ذلك مما لا يتعلق بمتن اللغة، وذلك لكى يكون هذا الكتاب شاملا يجد فيه كل طالب مطلوبه من هذا القبيل .

وقد دعاه هذا الاتجاه إلى أن ينقل عن كتب أخرى كثيرة بجانب نقله عن المعاجم المتداولة .

* * *

و الكتاب مقسم إلى أبواب بحسب الحرف الأول من حروف المادة .

فباب الهمزة للكلمات المبدوءة بهمزة أصلية .

وباب الباء للكلمات المبدوءة بباء أصلية .

والأبواب مقسمة إلى فصول بحسب الحرف الثانى من حروف المادة .

والكلمات فى الفصول مرتبة على حسب الحرف الثالث إذا كانت الكلمة ثلاثية، والرابع مع الثالث إذا كانت رباعية، والخامس مع الرابع والثالث إذا كانت خماسية .

وقد فرغ البستانى من تأليف محيطه سنة ١٨٦٩م (١) .

٢ ـ أقرب الموارد فى فصيح العربية والشوارد :

مؤلفه هو سعيد بن عبد الله بن ميخائيل الخورى الشرتونى ـ نسبة إلى شرتون بلبنان [١٨٤٨ ـ ١٩١٢ م] .

صدر هذا الكتاب سنة ١٨٩٠ فى جزأين، ثم ألحق به المؤلف جزءاً ثالثاً .

وقد ذكر فى مقدمته منهجه الذى التزم به فى تأليفه .

ويتلخص هذا المنهج فى النقاط الآتية : ـ

١ ـ ترتيب الكلمات على حسب الأبجدية العادية .

٢ ـ الاقتصار على الفصيح .

٣ ـ إهمال المفردات المتعلقة بالأمور الجنسية، فهذا المعجم يستهدف غرضاً تهذيبياً بجانب أغراضه العلمية .

٤ ـ تقليد مختار الصحاح والمصباح المنير فى استعمال الرموز الدالة على النطق الصحيح للكلمة.

فالنون	تعنى	باب	نصر ينصر
والضاد	«	«	ضرب يضرب
والعين	«	«	قطع يقطع
واللام	«	«	علم يعلم
والراء	«	«	كرُم يكرم
والسين	«	«	حَسِبَ يحْسِبُ (٢) .

(١) البحث اللغوى ص ٢١٨ والمعاجم العربية ص ١٣١ ـ ١٣٣ .

(٢) المقدمة ص ٢ .

ونلاحظ أن الشرتونى لم يتبع فى اختيار الرموز السابقة موقعا واحداً، فقد اختار الحرف الأول بالنسبة للنون والضاد، والأخير فى العين، والأوسط فى اللام والراء والسين .

* * *

والموازنة بين المحيط، وأقرب الموارد توقفنا على الأمور الآتية :-

١ - استغنى الشرتونى عن ذكر أغلب القواعد النحوية والصرفية مما ليس له أهمية فى توضيح معنى الكلمة .

٢ - لم يكثر من ذكر أسماء الرواة كما فعل البستانى .

٣ - لم يصرح فى أغلب الأحيان بأسماء الكتب التى نقل عنها .

٤ - بالنسبة للمشتقات التى تندرج تحت مادة واحدة، نجد أن الشرتونى قد التزم فيها طريقة معينة عصمته من التكرار والاضطراب اللذين وقع فيهما البستانى .

٥ - ساعدت نهضة الطباعة الشرتونى على أن يكون كتابه أحسن إخراجا من (محيط المحيط) .

فمثلا طبعت الكلمات المراد شرحها بنموذج أكبر، كما ذكرت أصول المواد بين قوسين . وهكذا [١] .

* * *

٣ - المنجد :

للأب لويس معلوف اليسوعى [١٨٦٧ - ١٩٤٦م] .

اتصل المد المعجمى فى العصر الحديث من البستانى إلى الشرتونى حتى وصل إلى الأب الفاضل لويس معلوف .

وقد جمع الأب لويس بين الاتجاهين القديم والحديث وهو يعد المنجد، وكان أخلاقياً فجرده من الكلمات غير اللائقة، وهى كلمات (لا يضر جهلها، وقلما أفاد علمها) كما قال .

والمادة اللغوية فى المنجد مرتبة على حسب الحروف الهجائية فى الأبجدية العربية .

---

(١) المعاجم العربية ص ١٣٤ - ١٣٥، والبحث اللغوى ص ٢١٦ .

فإذا كانت الكلمة مجردة بحث عنها في باب أول حرف منها، وإذا كانت مزيدة، أو فيها حرف مقلوب عن آخر، جردت من الزيادة، ورد الحرف المقلوب إلى أصله .

* * *

ولم يقصر الأب لويس معجمه على متن اللغة، وإنما أضاف إليه فصلين تحدث فى أحدهما عن أشهر المعاجم العربية، وضمن الآخر مجموعة من الأمثال .

والمنجد ينمو مع كل طبعة جديدة له،

وقد استمر هذا النمو حتى بعد موت صاحبه .

ففى طبعة فبراير سنة ١٩٥٦ [١] يوجد إلى جانب المنجد اللغوى (المنجد فى الأدب والعلوم).

وهو تراجم لأعلام من الشرق والغرب .

يقول الأب فردينان توتل اليسوعى : إنه عمله وألحقه بالمنجد الأصلى تحقيقاً لرغبة قديمة كان الأب لويس قد أبداها وأعجله الموت عن تحقيقها فنهض هو بها [٢] .

٤ ، ٥ المعجمان الكبير والوسيط :

من عمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

ظهر الجزء الأول من المعجم الكبير سنة ١٩٥٦ فى ٤٢٨ صفحة عدا الفهارس وهى تسعون صفحة والمقدمة وهى ثمان صفحات .

وقد وصل من حرف الهمزة إلى (أخى) .

---

(١) صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨ م .

(٢) البحث اللغوى ص ٢١٦ ـ ٢١٧، والمعاجم العربية للدكتور عبد السميع محمد أحمد ص ١٧٩ ـ ١٨٥، وكنت أود أن يختار الدكتور عبد السميع محمد أحمد لكتابه « المعاجم العربية » اسما آخر غير هذا الاسم بعد أن سبقه إليه الأستاذ الدكتور عبد الله درويش بثلاث عشرة سنة، فقد صدرت الطبعة الأولى من « المعاجم العربية » للدكتور عبد الله سنة ١٩٥٦ م وصدرت الطبعة الأولى من « المعاجم العربية » للدكتور عبد السميع سنة ١٩٦٩ م قد يقول الدكتور عبد السميع : ـ إن الدكتور درويش ذيل عنوانه بعبارة « مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد » .

وإننى قد فعلت الشىء نفسه فأضفت عبارة « دراسة تحليلية » لكنى أقول له : « ولو » .

ويتلخص منهجه فيما يأتى : ـ

١ ـ يبدأ فى كل مادة بذكر أصلها أو أصولها فى اللغات السامية إن وجد ذلك .

٢ ـ ترتب المادة حسب المعانى الكبرى مع التدرج من المدلولات المادية إلى المدلولات المعنوية.

٣ ـ يستشهد على ألفاظ المعجم بنصوص من الشعر والنثر على اختلاف العصور، وترتب الشواهد ترتيباً زمنياً إن أمكن .

٤ ـ تُرد الكلمات المأخوذة من لغات أجنبية قديمة أو حديثة إلى أصولها .

٥ ـ يُذكر ما لابد من ذكره من الأعلام، ويفسر تفسيراً موجزاً .

٦ ـ تُذكر أسماء البلاد والأماكن فى شىء من الاقتصاد، بحيث لا يهمل ما يتردد ذكره فى النصوص الأدبية من جهة، وبحيث لا يصبح المعجم معجماً جغرافياً من جهة .

٧ ـ يُشار إلى المراجع حين يكون ذلك لازماً .

٨ ـ يُضبط ما ليس بد من ضبطه إما بالشكل، وإما بالكلام .

٩ ـ يُذكر من المجاز ما شاع فى الشعر والنثر حتى صار مشبها لما يسميه أصحاب البيان وعلماء اللغة بالحقائق العرفية . فكثير من النصوص الأدبية تحتاج إلى ذلك فى فهمها .

١٠ ـ لا يُعتمد من الحديث إلاما ورد فى أصل صحيح، ويذكر الحديث كله لا بعضه لكن إذا اشتد طوله يكتفى منه بما يستشهد به .

* * *

وقد أبديت على هذا المعجم ملاحظات كثيرة :

منها ما يتعلق بالمراجع .

ومنها ما يتعلق بشرح الكلمات .

ومنها ما يتعلق بالمنهج [١] .

أما المعجم الوسيط، فهو معجم كامل .

ومنهجه هو منهج المعجم الكبير لكن بشكل مبسط، وقد طبع طبعتين، أولاهما سنة ١٩٦١ في جزأين كبيرين وهي تقع في مائة وألف صفحة من القطع الكبير، وتشتمل على ثلاثين ألف مادة ومليون كلمة، وستمائة صورة .

ولما اكتشف المجمع بعض هنات به أعاد طبعه سنة ١٩٧٠ م ومما يمتاز به هذا المعجم :-

١ - ترتيبه الهجائي العادي .

٢ - اشتماله على مصطلحات العلوم والفنون .

٣ - تضمينه كثيراً من ألفاظ الحياة العامة .

٤ - احتواؤه العديد من الألفاظ المولدة والمعربة حديثاً .

٥ - وضعه القرارات السابقة للمجمع موضع التطبيق .

---

(١) انظر البحث اللغوي ص ٢٢٨ - ٢٢٩ والمعاجم العربية ص ١٤٩ - ١٥٦ .

معاجم المعانى

وهى معاجم ترمى إلى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعانى .

. . .

فى معاجم الألفاظ كانت لدينا كلمات نبحث عن معانيها .

أما هنا فلدينا معان نبحث عن كلماتها .

وبعبارة أخرى : إذا كان النوع الأول من المعاجم يحتاج إليه من يعرف اللفظ، ويرغب فى الوقوف على معناه، فإن النوع الثانى يحتاج إليه من يعرف المعنى ويرغب فى الوقوف على ألفاظه .

هذه عدل تلك أو كما قال ابن سيده فى مقدمة المخصص : « ولما وضعت كتابى الموسوم بالمحكم مجنسا لأدل الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة . أردت أن أعدل به كتابا أضعه مبوبا حين رأيت ذلك أجدى على الفصيح والخطيب والشاعر » .

. . .

ويظهر أن معاجم المعانى قد سبقت معاجم الألفاظ إلى الوجود أو على الأقل لم تتأخر عنها . وإن أخذت فى البداية شكل كتيبات يتناول كل منها موضوعا واحداً .

ومن روادها الأوائل أبو مالك عمرو بن كركرة وأبو خيرة الأعرابى وهما من علماء القرن الثانى الهجرى .

كتب أولهما عن خلق الإنسان . وعن الخيل .

وكتب ثانيهما عن الحشرات .

. . .

وفى القرن الثالث وجدنا « السلاح » للنضر بن شميل .

والنحل، والإبل . والخيل لأبى عمرو الشيبانى .

والإنسان، والزرع لأبى عبيدة .

والمطر، والمياه، وخلق الإنسان، والشجر لأبى زيد الأنصارى .

والإبل، والنحل، والإنسان، والنبات والخيل للأصمعى .

وأسماء الخيل، والبئر والزرع لابن الأعرابى .

ولم يقنع علماء هذا القرن بالكتيب ذى الموضوع الواحد، بل طوروه إلى كتاب يجمع أكثر من كتيب .

ولم يكن ذلك صعبا لأنه ليس شيئا سوى ضم كتيبات ذات موضوعات مختلفة إلى بعضها البعض، لاوجه للشبه بينها سوى وحدة الموضوع فى الكتيب ووحدة المؤلف فى الكتاب .

* * *

ويستمر الاتجاهان فى القرن الرابع .

فيؤلف الأخفش « الأنواء » وابن دريد « السرج واللجام » و« المطر والسحاب » .

ويكتب عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى « الألفاظ الكتابية » وقدامة بن جعفر «جواهر الألفاظ» .

* * *

وفى القرن الخامس تتسع همة الباحثين فلا يؤلفون - فى الغالب - إلا الكتب الحافلة بالموضوعات المختلفة .

* * *

ومن جلائل الأعمال فى هذا المجال :

١ - مبادىء اللغة للأسكافى (ت ٤٢١ هـ) وهو أبواب يعالج كل منها موضوعاً مستقلا بنفسه كالنجوم والدهر والليل والنهار ،الثياب والآلات وأدوات الطعام والشراب .

٢ - كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابى .

من أبوابه

باب في صفات الرجال المحمودة .

ومن صفات الرجال المذمومة .

باب صفات النساء المحمودة .

ومن مذموم صفاتهن .

معرفة حلى النساء .

باب ما يحتاج إلى معرفته من خلق الإنسان .

٣ ـ المخصص لابن سيده مطبوع فى سبعة عشر جزءا وهو أشمل وأكمل معاجم المعانى، ولاغرو، فقد استعان ابن سيده فى تأليفه بكل ما كتب فى موضوعه، بل وفى غير موضوعه مماله به أدنى ملابسة .

يقول فى مقدمته : « وتأملت ما ألفه القدماء فى هذا اللسان، فوجدتهم قد أورثونا بذلك علوما نفيسة جمة ... إلا أنى وجدت ذلك نشراً غير ملتئم ونثرا ليس بمنتظم ... ثم إنى لم أرلهم فيها كتابا مشتملا على جلها فضلا عن كلها، مع أنى رأيت جميع من مد إلى تأليفها يدا ... قد حرموا الارتياض بصناعة الإعراب، ولم يرفع الزمن عنهم ما أسدل عليهم من كثيف ذلك الحجاب حتى كأنهم موات لم يمد بحيوانية، أو حيوان لم يحد بإنسانية » .

. . .

والمخصص مقسم إلى أبواب رئيسية بحسب الموضوعات، وتحت كل باب مجموعة من التقسيمات الفرعية ،

فكتاب (خلق الإنسان)

تحته أبواب : الحمل والولادة ـ أسماء ما يخرج مع الولد ـ الرضاع والفطام والغذاء وسائر ضروب التربية ـ الغذاء السيء للولد .... ـ الرأس ـ ومن صفات الرأس ـ ... ـ الحاجب ـ العين وما فيها ... الأنف .... ـ الشفة وما يليها عن الذقن [1] .

وقد [انتخل (المخصص) واستخرج مصاصه، واصطفى لبابه] [2] .

الاستاذان الفاضلان : حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدى بكتابهما القيم .

[الإفصاح فى فقه اللغة] وهو جزآن مشتملان على ١٣٩٤ صفحة من القطع الكبير، وإلى الآن ظهرت له طبعتان الأولى سنة ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٢٩ م، والثانية سنة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م، وختماه بمعجم لمواده مرتب على حسب الحروف الهجائية فى ٨٣ صفحة .

وقد صار (الإفصاح) بهذا العمل الجليل معجم ألفاظ إلى جانب كونه معجم معان .

. . .

وإذا سئلنا عن الفائدة المرجوة من معاجم المعانى .

فإننا نجيب : بأن هذا النوع من المعاجم لا يفيد من عثر على كلمة وأراد ضبطها أو شرحها،

ولكنه يفيد من يدور فى ذهنه معنى من المعانى، أو يفكر فى موضوع ما، ويريد أن يجمع الألفاظ المتعلقة به .

فمثل هذا الباحث لو عول فيما يريد على معاجم الألفاظ لأمضى الأيام والأسابيع والشهور وربما السنين قبل أن تمتلىء حوصلته .

أما معاجم المعانى فهى بالنسبة إليه وسائد وموائد .

---

(١) البحث اللغوى ص ٢٠٣ ـ ٢٠٨ وعلم اللغة ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(٢) من مقدمة « الإفصاح » .

من تراثنا اللغوى

كتاب (الفاخر)

للمفضل بن سلمة

المفضل :

هو أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم اللغوى ولد فى العقد الأول من القرن الثالث الهجرى .

وتوفى فى العقد الأخير منه، وعلى وجه التحديد سنة ٢٩١ هـ .

شيوخه :

أشهر شيوخه أربعة هم :

ـ ١ ـ

سلمة بن عاصم

وهو والده، كان عالماً حافظاً ثقة، فيه ورع شديد أخذ عن أبى زكريا يحيى الفراء، وروى عنه كتبه، وصحبه حتى لقب بصاحب الفراء، ومع أخذه عنه كان يراجعه فيما يجد فى مجالسه من سهو، ويناظره على ذلك فيرجع الفراء عنه، كما أخذ سلمة أيضاً عن خلف الأحمر وسمع منه.

ولسلمة التصانيف الكثيرة فى فنون الأدب ومعانى القرآن .

ـ ٢ ـ

يعقوب بن إسحق السكيت

كان عالماً بالقرآن ونحو الكوفيين، ومن أعلم الناس باللغة والشعر، راوية ثقة، لم يكن بعد ابن الأعرابى مثله. أخذ عن أبى عمر الشيبانى والفراء وابن الأعرابى والأثرم وروى عن الأصمعى وأبى عبيدة .

ـ ٣ ـ

أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب

كان بحر علم، عُرف بالحفظ، فقد حفظ كتب الفراء كلها حتى لم يشذ عنه حرف منها، وأتقن النحو، وأخذه عن سلمة بن عاصم، فلما أتقنه أكبَّ على الشعر والمعانى والغريب، ولزم أبا عبد الله بن الأعرابى بضع عشرة سنة، وكان ابن الأعرابى إذا شك فى شئ يقول له :

ما عندك يا أبا العباس فى هذا ؟

ثقةٌ منه بغزارة حفظه وكثرة روايته وحسن درايته، روى عن أبى نجدة كتب أبى زيد، وعن الأثرم كتب أبى عبيد وعن أبى نصر كتب الأصمعى .

* * *

ـ ٤ ـ

ابن الأعرابى

كان إماماً فى اللغة، ثقة فى الرواية والأشعار. أخذ المفضل عنه بالتلقى كما أخذ عنه من طريق شيخيه : يعقوب وثعلب .

منزلته العلمية :

ظفر المفضل فى تنشئته وتثقيفه بهؤلاء الأئمة، ولكل منهم سبقه وحذقه بفنه، مع ما يتميز به من قوة العارضة والإحاطة الشاملة والذكاء الحاد .

فجاء مبرزاً فيما تلقى منهم بصيراً بما روى عنهم، نلمس منه أثر هؤلاء الرجال فيه، ولم تهدأ نفسه حتى صار إماماً يرتقى إلى مصاف أساتذته، ويذكر معهم حين تعد الأئمة .

عده القدماء من فرسان اللغة، وكتبه تشهد بأنه كان فيها وفى فقهها على ما ليس عليه أحد من طبقته .

أما إمامته فى النحو وفقهه بمعانى القرآن، وعلمه الواسع بالأدب، فتشهد له بها جميعها هذه الكثرة من كتبه فى هذه الفنون، وقد سجلها له كل من كتبوا عنه، كما أثبتها ابن النديم فى فهرسته .

وعن دقة ملاحظته وحسن تأتيه فى معالجة الأمور وعلمه بطبائع النفوس وتحكم العادات، ثم عن معرفته بعلم الأصوات، حدّث ولا حرج .

يؤيد هذا ما رواه القاضى التنوخى فى (نشوار المحاضرة) عن أبى الفتح أحمد بن على ابن هارون المنجم عن أبيه أنه كان لا يقيم الراء فى كلامه ويجعلها غيناً، وسنه إذ ذاك أربع سنين أو أقل، فدخل أبو طالب المفضل بن سلمة على أبيه وهو بحضرته، فتكلم علىٌّ بشئ فيه راء فلثغ فيها فقال المفضل لأبيه :

لم تدعه يتكلم هكذا ؟ !!

فقال له : ما أصنع وهو ألثغ ؟ !

فقال المفضل : إن اللثغة لا تصح مع سلامة الجارحة، وإنما هى عادة سيئة تسبق إلى الصبى أول ما يتكلم لجهله بتحقيق الألفاظ وسماعه شيئاً يحتذيه، فإن ترك على ما يتلفظ به من ذلك مرن عليه فصار له طبعاً لا يمكنه التحول عنه، وإن أُخذ بتركه فى أول نشوئه استقام لسانه وزال عنه، وأنا أزيل هذا عنه ولا أرضى فيه بتركك له عليه، ثم قال لعلىٍّ :

أخرج لسانك، فأخرجه، فتأمله، فقال :

الجارحة صحيحة، قل يا بنى : (راء) واجعل لسانك فى سقف حلقك، ففعل ذلك، فلم يتيسر له .

فما زال يرفق به مرة ويخشن له أخرى، وينقل لسانه إلى موضع آخر دفعات كثيرة فى أزمان طويلة، حتى قال : (راء) صحيحة فى بعض تلك المواضع، فطالبه بذلك وأوصى معلمه بالزامه إياه حتى مرن لسانه عليه وذهبت تلك اللثغة عنه .

* * *

هذا الذكاء من أبى طالب، وهذا الاتساع فى علمه، جعلاه مفخرة لمن يجلس إليه، وموضع تسابق فى تكريم المحافل له .

وقد أدرك ذلك منه الفتح بن خاقان فضمه إلى جملته وحرص على أن يكون من صفوته .

وظل من خاصته حتى مات الفتح .

كتبـــه :

ذكر ابن النديم المفضل كتباً كثيرة منها :

١ ـ كتاب البارع فى علم اللغة .

٢ ـ كتاب الفاخر .

٣ ـ كتاب العود والملاهى .

٤ ـ كتاب جلاء الشبه .

٥ ـ كتاب الطيف .

٦ ـ كتاب ضياء القلوب فى معانى القرآن .

٧ ـ كتاب الاشتقاق .

٨ ـ كتاب الزرع والنبات والنخل وأنواع الشجر .

٩ ـ كتاب خلق الإنسان .

١٠ـ كتاب ما يحتاج إليه الكاتب .

١١ـ كتاب المقصور والممدود .

١٢ـ كتاب الطيب .

١٣ـ كتاب المدخل إلى علم النحو .

١٤ـ كتاب الأنواء والبوارح .

١٥ـ كتاب الخط والقلم .

١٦ـ كتاب جماهير القبائل .

١٧ـ كتاب الرد على الخليل وإصلاح ما فى كتاب العين من الغلط والمحال والتصحيف .

١٨ـ كتاب : شعر زيادة بن زيد الصمة القشيرى .

العلماء الذين روى المفضل عنهم

العلماء الذين روى المفضل عنهم كثيرون :

وسنذكر أشهرهم بعد أن نرتبهم بسنى وفاتهم .

وهؤلاء هم :

ـ ١ ـ

أبو عمرو بن العلاء ١٥٤ هـ

هو زبّان بن عمّار التميمى المازنى البصرى، ويلقب أبوه بالعلاء، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة. ولد بمكة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة، كان أعلم الناس بالعربية والقرآن والأدب والشعر .

وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية .

ـ ٢ ـ

الشرقى بن القطامى ١٥٥ هـ

أبو المثنى الوليد بن حصين بن حبيب الكلبى .

عالم بالأدب والنسب. من أهل الكوفة .

وقد استقدمه منها إلى بغداد أبو جعفر المنصور ليعلم المهدى قالوا : كان صاحب سمر .

ـ ٣ ـ

المفضل الضبى ١٦٨ هـ

أبو العباس بن محمد بن يعلى بن عامر الضبى .

راوية علامة بالشعر والأدب وأيام العرب .

من أهل الكوفة، أوثق من روى الشعر من الكوفيين له كتب أشهرها (المفضليات) .

وهى قصائد اختارها وصنفها للخليفة العباسى المهدى .

- ٤ -

يونس بن حبيب ١٨٢ هـ

أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبى بالولاء .

علامة بالأدب، كان إمام نحاة البصرة فى عصره .

أخذ عنه سيبويه والكسائى والفراء وغيرهم من الأئمة .

- ٥ -

أبو اليقظان ١٩٠ هـ

عامر بن حفص، عالم بالأنساب، ويلقب بسحيم .

له كتب منها (أخبار تميم) وكتاب (النسب الكبير) .

- ٦ -

مؤرج السدوسى ١٩٥ هـ

أبو فيد مؤرج بن عمر بن الحارث. من سدوس من شيبان .

عالم بالعربية والأنساب. مولده ووفاته فى البصرة .

كان له اتصال بالمأمون العباسى، ورحل معه إلى خراسان، فسكن مدة بمرو، وانتقل إلى نيسابور .

من كتبه غريب القرآن، وكتاب الأمثال والمعانى .

وله شعر جيد .

ـ ٧ ـ

النضر بن شميل ٢٠٣ هـ

هو أبو الحسن النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازنى التميمى. أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة .

ولد بمرو، وانتقل إلى البصرة مع أبيه سنة ١٢٨ هـ ـ وأصله منها ـ فأقام بها زمناً ثم عاد الى مرو، فولى قضاءها، واتصل بالمأمون فاكرمه وقربه وتوفى بمرو .

من كتبه : الصفات .

السلاح .

المعانى .

غريب الحديث .

الأنواء .

ـ ٨ ـ

أبو عمرو الشيبانى ٢٠٦ هـ

من أعلم القوم باللغة وأحفظهم وأكثرهم أخذاً عن ثقات الأعراب .

له كتاب الجيم وكتاب النوادر .

ـ ٩ ـ

الفراء ٢٠٧ هـ

أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلى مولى بنى أسد .

إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب .

قال ثعلب : لولا الفراء ما كانت اللغة .

ولد بالكوفة، وانتقل إلى بغداد، وعهد إليه المأمون بتربية ابنيه فكان أكثر مقامه بها، وكان مع تفوقه فى اللغة فقيها متكلماً عالماً بأيام العرب وأخبارها، عارفاً بالنجوم والطب، يميل إلى الاعتزال .

من كتبه :

من معاني القرآن - الأيام والليالى - البهى - الحدود - مشكل اللغة - المذكر والمؤنث - كتاب اللغات (اللهجات) - الجمع والتثنية فى القرآن .

وقد اشتهر بالفراء لا لأنه كان يعمل فى صناعة الفراء، أو يتجر فيها، وإنما لأنه كان يفرى الكلام .

- ١٠ -

أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى ٢٠٩ هـ

هو تميمى بالولاء، مولده ووفاته بالبصرة .

استقدمه الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه .

قال الجاحظ عنه : - لم يكن فى الأرض أعلم بجميع العلوم منه .

من حفاظ الحديث، إلا أنه كان شعوبياً .

له نحو من مائة كتاب .

- ١١ -

أبو زيد الأنصارى ٢١٥ هـ

سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى أحد أئمة الأدب واللغة، من أهل البصرة، ووفاته بها، وهو من ثقات اللغويين .

كان سيبويه إذا قال : سمعت الثقة، عنى أبا زيد هذا

من مؤلفاته : - النوادر فى اللغة - لغات القرآن - خلق الإنسان - غريب الأسماء .

- ١٢ -

الأصمعى ٢١٦ هـ

أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى، راوية العرب، وأتقنهم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظاً. مولده ووفاته بالبصرة، كان كثير التطواف فى البوادى، يقتبس علومها وأخبارها .

له تصانيف كثيرة .

- ١٣ -

ابن الأعرابى ٢٣٣ هـ

أبو عبد الله محمد بن زياد. راوية نسابة علامة باللغة من أهل الكوفة، لم ير أحد فى علم الشعر أغزر منه، وهو ربيب المفضل بن محمد الضبى صاحب المفضليات .

مات بسامراء، وله تصانيف كثيرة .

- ١٤ -

أبو عبيد ٢٢٤ هـ

أبو عبيد القاسم بن سلام الهروى الأزدى الخزاعى بالولاء، من أكابر العلماء بالحديث والأدب والفقه. ولد وتعلم بهراه ثم رحل إلى بغداد، فولى القضاء بطرسوس، وكان منقطعاً للأمير عبد الله بن طاهر .

من كتبه :

الغريب المصنف فى غريب الحديث .

ألفه فى نحو أربعين سنة، وهو أول من صنف فى هذا الفن .

- ١٥ -

اليمامى ٣٨٠ هـ

أبو على محمد بن جعفر بن نمير، من بنى حنيفة. شاعر. راوية. أديب. من أهل اليمامة ببغداد.

* * *

الفاخر

لا يحسن اللغوى إذا سئل عن شئ مما يستعمله الناس ويتداولونه فى كلامهم، فلم يعرفه .

ويستفيض منه أن يسأل عن معانى -

١ - أهلاً ومرحباً ص ٣

٢ - أقر الله عينه ص ٦

٣ - بالرفاء والبنين ص ١٢

٤ - هو ابن عمه لحا ص ٣٢

٥ - الحديث ذو شجون ص ٥٩

٦ - إذا عز أخوك فهن ص ٦٤

٧ - ساء سمعاً فأساء إجابة ص ٧٢

٨ - ميمون النقيبة ص ١٨٨

٩ - ناهيك بفلان ص ٢١٧

١٠- ويل للشجى من الخلى ص ٢٤٨

١١- استخرت الله ص ٢٧٧

١٢- قد خلبنى حب فلانة ص ٢٨٤

نقــول :-

سيغض منه أن يسأل عن معانى هذه الأمثلة كلها أو بعضها، أو عن معانى غيرها مما هو من قبيلها، فيعجز، ولا يدرى من أى شئ اشتقاقها، وكيف أصولها وتصاريفها .

* * *

وكتاب (الفاخـر)

قد تناول هذه الأساليب وغيرها مما كان يجرى على ألسن الناس، فوضحه وبين معناه، وإن كان للعلماء فيه أكثر من رأى قرره .

* * *

لكن ثمة ملاحظة تتعلق بكتاب الفاخر .

ذلك أن بعض من ترجموا للمفضل قد وصفوا هذا الكتاب له بأنه كتاب فيما يلحن فيه العامة .

فما المقصود بلحن العامة ؟

أهو مخالفتهم الإعراب باصطلاح النحاة ؟

أم هو تحريفهم اللفظ الفصيح عن موضعه فى النطق ؟

بالرجوع إلى الفاخر، وإمعان النظر فيه لم نجد به مما يمكن رده إلى واحد من المعنيين السابقين إلا العبارات ١٩٩ ص ١١٦، ٣٧٦، ٣٧٧ ص ٢٤٦ أما باقى عباراته وعددها ثمانى عشرة وخمسمائة عبارة، فتندرج تحت اللحن الذى هو الإخلال بالإعراب المعنوى،

وذلك بالعدول عن معنى اللفظ إلى معنى غيره، وفهمه على غير ما فسره به أئمة اللغة وأرباب المعانى .

وقد سماه الجاحظ سوء التأويل، وعده من عيوب النطق .

ونستند فى هذا الفهم على قول المفضل فى صدر الفاخر :-

هذا كتاب معانى ما يجرى على ألسن العامة فى أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب، وهم لايدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك،

فبيناه من وجوهه على اختلاف العلماء فى تفسيره،

ليكون من نظر فى هذا الكتاب عالماً بما يجرى من لفظه ويدور فى كلامه .

* * *

وملاحظة أخرى هى :-

أن بعضاً من فهارس المخطوطات، قد ذكر أن كتاب الفاخر كتاب أمثال .

والحق أن فى الكتاب أمثالاً كثيرة .

لكن ذلك لا يجعلنا ننحاز به إلى كتب الأمثال الخالصة، اللهم إلا إذا أدخلنا العبارات الجارية على ألسن الناس والمتداولة بكثرة بينهم فى مدلول كلمة (مثل) ويكون ذلك من باب التوسع.

على أن صاحب كشف الظنون حين ذكر كتاب الفاخر جعل التعريف به قوله :-

«كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة، ألفه فيما دار واشتهر بين الناس، وسار كالأمثال، ثم شرحه»(١) .

وهذا القول من صاحب كشف الظنون ينطبق تمام الانطباق على المادة العلمية التى اشتمل عليها كتاب الفاخر .

وهو لذلك أحسن تعريف به، وأصدق وصف له .

والآن مع هذه النماذج منه :-

---

(١) كشف الظنون ص ١٢١٥ طبعة الآستانة وانظر المقدمة الفاخرة التى صدر بها الأستاذ عبد العليم الطحاوى كتاب الفاخر طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ .

ـ ا ـ

قولهم : مرحبا وأهلا

قال الفراء :ـ

معناه : رحب الله بك وأهلك. على الدعاء له، فأخرجه مخرج المصدر فنصبه. ومعنى رحب: وسع .

قال الأصمعي : أتيتَ رحباً أى سعة، وأهلاً كأهلك فاستأنس .

ويقال الرُّحب والرَّحب. ومن ذلك الرحبة .

سميت بذلك لسعتها .

وقال طفيل :ـ

وبالسهب ميمون الخليقة قوله

لملتمس المعروف : أهل ومرحب

وذكر ابن الكلبى وغيره :

أن أول من قال : (مرحباً وأهلاً) سيف بن ذى يزن الحميرى لعبد المطلب بن هاشم لما وفد إليه مع قريش ليهنئوه برجوع الملك إليه؛ وذلك أن عبد المطلب استأذنه فى الكلام فقال له سيف : إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك، فقال عبد المطلب بعد أن دعا له وقرظه وهنأه : نحن أهل حرم الله، وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذى أبهجنا لك، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة فقال : وأيهم أنت ؟ قال أنا عبد المطلب .

فقال سيف : مرحباً وأهلاً، وناقة ورحلا، ومناخاً سـهلاً، وملكاً ربَحْلا، يعطى عطاء جزلاً [(١)] .

---

(١) الفاخر ص ٣ ـ ٤ .

- ٢ -

قولهم : ناهيك بفلان

معناه : كفاك به، وهو مأخوذ من قولهم :

قد نَهِيَ الرجل من الطعام، وأنهى، إذا اكتفى .

وقال الشاعر :-

لو كان ما واحداً هواك لقد

أنهى، ولكن هواك مشترك

وقال الآخر :-

يمشين دسما حول قبته

ينهين عن أكل وعن شرب[١] .

* * *

- ٣ -

قولهم : استخرت الله

حكى عن يونس بن حبيب النحوي : استخرت : استفعلت من الخير أي سألته أن يوفق لى خير الأشياء التى أقصدها. قال : وكان الأصل استخيرت الله (فأسقطت الياء وألقيت حركتها على الخاء؛ لأن الياء ساكنة، وبعدها الراء ساكنة، فأسقط لاجتماع الساكنين) [٢]

قال الأصمعى : - أصل الاستخارة - في غير هذا - الاستعطاف [٣] .

(١) الفاخر ص ٢١٧ .

(٢) ما بين القوسين هو - بالنص - ما جاء فى الأصل، وكان ينبغى أن يقول فى مكانه : - ألقيت حركة الياء على الخاء فسكنت الياء ثم أسقطت لاجتماع الساكنين، أو يقول فأسقطت الياء بعد أن ألقيت حركتها على الخاء لاجتماع الساكنين الياء والراء .

(٣) الفاخر ص ٣ - ٤ .

ـ ٤ ـ

قولهم : قد خلبنى حب فلانة

ومعناه : بلغ خِلْبِى. والخلب : حجاب القلب .

ويقال للرجل الذى تحبه النساء : إنه لخلب نساء .

ومنه يقال : رجل خلاب أى يخلب الناس ويذهب بعقولهم .

قال جرير :ـ

أخَلَبْتِنا وصـــددتِ أم محـــلم

أفتجمعين خلابة وصــــدودا [١]

ـ ٥ ـ

قولهم : قد طَبِنَ لهم

أى فطن : والطبن والطبانة : الفطنة، وقال زهير :ـ

ومن يحارب تجده غير مضطهد

يربى على بِغْضَةَ الأعداء بالطبَن

يقول : يزيد على أعدائه بفطنته فيحتال عليهم فيما يهلكهم [٢] .

---

(١) الفاخر ص ٢٨٤ .

(٢) الفاخر ص ٣١٦ .

فقه اللغة وسر العربية

للثعالبى

الثعالبى :

هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبى النيسابورى .

لقب بالثعالبى، لأنه كان فراء، أو لأنه كان يعالج جلود الثعالب ويخيطها .

وذلك بالإضافة إلى عمله الأصلى وهو تأديب الصبيان .

أما نسبته إلى نيسابور؛ فلأنه ولد فيها سنة ٣٥٠ هـ ومات بها سنة تسع وعشرين ـ وقيل سنة ثلاثين ـ وأربعمائة .

نقل ابن خلكان فى كتابه (وفيات الأعيان حـ ١ ص ٢٩١) قول ابن بسام عنه (كان فى وقته راعى تلعات العلم[1] وجامع أشتات النثر والنظم. رأس المؤلفين فى زمانه، وإمام المصنفين بحكم أقرانه، سار ذكره سير المثل، وضربت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب، طلوع النجم فى الغياهب. تواليفه أشهر مواضع، وأبهى مطالع، وأكثر من أن يستوفيها حد أو وصف، أو يوفى حقوقها نثر أو رصف .

* * *

وعلى الرغم من أن الثعالبى كان جديراً بهذا الكلام الذى قرظه به ابن بسام، ومن أنه عاش قرابة الثمانين عاماً، ألف فيها أكثر من ثمانين كتاباً غطى بها كل مجالات البحث فى اللغة العربية وعلومها وآدابها مثل :ـ

(فقه اللغة وسر العربية) و(ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب) و(سحر البلاغة) و(التعريض والكناية) و(المنهج) و(التمثيل والمحاضرة) و(خاص الخاص) و(يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر) .

---

(١) التلعة : ما ارتفع من الأرض، وما انهبط منها (ضد) ومسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادى . قال صاحب القاموس المحيط. «لاتكون التلاع إلا فى الصحارى» .

نقول :-

على الرغم من ذلك كله وغيره، فإن الثعالبى لم يلق من المؤلفين وكتاب التراجم، ما هو أهل له من الإشادة به، وتسليط الأضواء على حياته .

وحتى تلميذه وربيبه علي بن الحسن الباخر زى صاحب كتاب (دمية القصر وعصرة أهل العصر) والمتوفى سنة ٤٦٧ هـ لم يزد فى التعريف به على قوله فى حقه :-

جاحظ نيسابور؛ وزبدة الأحقاب والدهور، لم تر العيون مثله، ولا أنكرت الأعيان فضله، وكيف ينكر وهو المزن يحمد بكل لسان، أو يستر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان، وكنت وأنا فرخ أزغب، فى الاستضاءة بنوره أرغب، وكان هو ووالدي بنيسابور لصيقى دار، وقريبى جوار، فكم جملة كتب كانت تدور بينهما فى الإخوانيات، وقصائد يتقارضان بها فى المجاوبات وما زال بى رءوفا وعلىَّ حانيا، حتى ظننته أباثانيا، رحمة الله عليه كل صباح تخفق رايات أنواره، ومساء تتلاطم أمواج قاره [(١)] .

وقريب مما قاله الباخرزى فى دمية القصر، ما قاله الحصرى فى زهر الآداب. قال :-

وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا، وهو فريد دهره، وقريع عصره؛ ونسيج وحده، وله مصنفات فى العلم والأدب تشهد له بأعلى الرتب، وقد فرقت ما اخترته منها فى هذا الكتاب (زهر الآداب) [(٢)] .

* * *

ويؤخذ مما ألفه الثعالبى أنه كان غرة فى جبين العلم والأدب، عرف ما حفل به عصره من فنون وآداب. وهضم ما ترجم إلى العربية من ثقافات أجنبية .

والآن . مع كتابه :-

---

(١) دمية القصر ص ١٨٣ .

(٢) زهر الآداب جـ ١ ص ١٥٧ .

فقه اللغة وسر العربية

هو كتاب ألفه للأمير أبى الفضل الميكالى

قالوا : كان الثعالبى مشغوفاً بحبه، محنى الأضالع على مودته فأهدى إليه أنفس كتبه، ولا عجب، فقد كان الميكالى يرعاه ويريش جناحه، ويخلى بينه وبين خزائن كتبه .

نفتح كتاب (فقه اللغة) فنقرأ فى مقدمته :-

العربية خير اللغات، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هى أداة العلم ومفتاح التفقه فى الدين .

وقد قيض الله لها حفظة وخزنة من خواص الناس، وأعيان الفضل، وأنجم الدهر، كدوا فى حصر لغاتها طباعهم، وأسهروا فى تقييد شواردها أجفانهم، وأجالوا فى نظم قلائدها أفكارهم، وأنفقوا على تخليد كتبها أعمارهم. فعظمت الفائدة وعمت المصلحة. وتوفرت العائدة .

* * *

وكلما بدأت معارفها تتنكر، أو كادت معالمها تتستر أو عرض لها ما يشبه الفترة، رد الله عليها الكرة، فأهب ريحها، ونفق سوقها بفرد من أفراد الدهر أديب. ذى صدر رحيب ..... يحب الأدب، ويتعصب للعربية، فيجمع شملها ويكرم أهلها، ويحرك الخواطر الساكنة لإعادة رونقها،

ويستدعى التأليف البارعة فى تجديد ما عفا من رسوم طرائقها ولطائفها مثل الأمير السيد الأوحد أبى الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى، أدام الله بهجته وحرس مهجته .

أين لا أين مثله، وأصله أصله، وفضله فضله .

هيهات لا يأتى الزمـــان بمثــله

إن الزمـــان بمثـــله لبخيل

* * *

وقد كانت تجرى فى مجلسه نكت من أقاويل أئمة الأدب فى أسرار اللغة وجوامعها ولطائفها وخصائصها مما لم يتنبهوا لجمع شمله، ولم يتوصلوا إلى عقد نظمه. وإنما اتجهت لهم فى أثناء التأليفات وتضاعيف التصنيفات لمع يسيرة كالتوقيعات، وفقر خفيفة كالإشارات .

فيلوح لى أدام الله دولته بالبحث عن أمثالها وتحصيل أخواتها، وتذليل ما يتصل بها وينخرط فى سلكها، وكسر دفتر جامع عليها .

وذات مرة أفضت بنا شجون الحديث إلى هذا الكتاب المذكور وكونه شريف الموضوع، أنيق المسموع، إذا خرج من العدم إلى الوجود .

فأحلت فى تأليفه على بعض حاشيته من أهل الأدب إذا أعاره أدام الله قدرته لمحة من هدايته، وأمده بشعبة من عنايته .

فقال لى ـ صدق الله قوله ولا أعدم الدنيا جماله وطوله :ـ

إنك إذا بدأت فيه أجدت وأحسنت، وليس له إلا أنت .

فقلت : سمعا سمعا، ولم أستجز لأمره دفعاً، بل تلقيته باليدين، ووضعته على الرأس والعين .

وقد أقام لى فى التأليف معالم، أقف عندها، وأقفو حدها

وأهاب بى إلى ما اتخذته قبلة أصلى إليها، وقاعدة أبنى عليها، من التمثيل والتنزيل والتفصيل والترتيب، والتقسيم والتقريب .

* * *

وقد فتح الله على الثعالبى فى استتمام الكتاب وتقرير الأبواب التى بلغت الثلاثين .

أما الفصول، فقد ناهزت الستمائة .

واختار لترجمته ما جعله عنوان معرفته :ـ

(فقه اللغة وسر العربية)

وهو اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه .

* * *

أما بعد :

فهذه أمثلة منه عساها تنبيء عنه .

وفى انتظار دراسة وافية له .

نسأل الله تيسيرها بتهيئة أسبابها، والإقدار عليها والتوفيق فيها آمين .

* * *

- ١ -

الباب الأول فى الكليات

وهى ما أطلق أئمة اللغة فى تفسيره لفظة (كل)

(فصل فيما نطق به القرآن من ذلك وجاء تفسيره عن ثقات الأئمة)

* * *

كل ما علاك فأظلك فهو سماء . كل أرض مستوية فهى صعيد .

كل حاجز بين الشيئين فهو عَوْبِق . كل بناء مربع فهو كعبة .

كل بناء عال فهو صرح . كل مايستحى من كشفه من أعضاء الإنسان فهو عورة .

كل ما يستعار من قدوم أو شفرة أو قدر أو قصعة فهو ماعون.

كل شئ من متاع الدنيا فهو عرض .

كل ما هيجت به النار إذا أوقدتها فهو حصب، كل نازلة شديدة بالإنسان فهى قارعة .

كل شئ تصير عاقبته إلى الهلاك فهو تهلكة .

كل ما كان على ساق من نبات الأرض فهو شجر .

كل بستان عليه حائط فهو حديقة [١] .

---

(١) فقة اللغة ص ١٣ الطبعة الأولى. القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .

- ٣ -

الباب الثالث فى الأشياء

تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها

(فصل فيما روى منها عن الأئمة وعن أبى عبيدة)

لا يقال : كأس إلا إذا كان فيها شراب، وإلا فهى زجاجة .

ولا يقال : مائدة إلا إذا كان عليها طعام، وإلا فهى خوان .

ولا يقال : كوز إلا إذا كانت له عروة، وإلا فهو كوب .

ولا يقال : فرو إلا إذا كان عليه شعر، وإلا فهو جلد .

ولا يقال لماء الفم : رضاب إلا مادام فى الفم، فإذا فارقه فهو بزاق .

ولا يقال : عويل إلا إذا كان معه رفع صوت، وإلا فهو بكاء .

لا يقال للشجاع : كمى إلا إذا كان شاكى السلاح، وإلا فهو بطل .

لا يقال للثوب : حلة، إلا إذا كان ثوبين اثنين من جنس واحد .[1]

---

(١) فقه اللغة ص ١٣ الطبعة الأولى. القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .

- ٣ -

الباب الثامن عشر فى أحوال وأفعال الإنسان وغيره من الحيوان

فصل فى ترتيب النوم

أول النوم النعاس، وهو أن يحتاج الإنسان إلى النوم .

ثم **الوسن** : وهو ثقل النعاس .

ثم **الترنيق** : وهو مخالطة النعاس العين .

ثم **الكرى والغمض** : وهو أن يكون الإنسان بين النائم واليقظان .

ثم **التغفيق** : وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم .

ثم **الإغفاء** : وهو النوم الخفيف .

ثم **التهويم والغرار والتهجاع** : وهو النوم القليل .

ثم **الرقاد** : وهو النوم الطويل، ثم الهجود والهجوع .

والهبوع : وهو النوم الغرق .

ثم **التسبيخ** : وهو أشد النوم .(١)

فصل فى ترتيب الجوع

أول مراتب الحاجة إلى الطعام الجوع ثم السغب ثم الغرث ثم الطوى ثم المخمصة ثم الضرم ثم السعار .(٢)

(١ ، ٢) فقه اللغة ص ١٣٦ .

ـ ٤ ـ

القسم الثانى

مما اشتمل عليه الكتاب وهو سر العربية فى مجارى كلام العرب وسننها، والاستشهاد بالقرآن على أكثرها .

فصل فى تقديم المؤخر وتأخير المقدم

العرب تبتدى بذكر الشئ والمقدم غيره كما قال عز وجل : «يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين» وكما قال تعالى : «فمنكم كافر ومنكم مؤمن» .

وكما قال عز وجل : «يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور» .

وكما قال الله تعالى : «وهو الذى خلق الليل والنهار» .

وكما قال حسان بن ثابت فى ذكر بنى هاشم :ـ

بهاليل منهم جعفر وابن عمه
على ومنهم أحمد المتخير

وكما قال الصلتان العبدى :ـ

فملتنا أننا مسلمون ... على دين صديقنا والنبى(١)

فصل فى الحمل على اللفظ والمعنى للمجاورة

العرب تفعل ذلك فتقول :ـ

هذا جحر ضب خربٍ .

والخرب نعت الجحر لا نعت الضب، ولكن الجوار عمل عليه .

(١) فقة اللغة ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

كما قال امرؤ القيس :ـ

كأن ثبيرا فى عرانين وبله

كبير أناس فى بجاد مزمل[١]

فالمزمل نعت لكبير، وحقه الرفع، ولكن خفضه للجوار .

وكما قال الآخر :ـ

ياليت شيخك قد غدا   متقلداً سيفاً ورمحاً

والرمح لا يقلد، وإنما قال ذلك لمجاورته السيف [٢].

ـ ٥ ـ

فصل فى حفظ التوازن

العرب تزيد وتحذف حفظاً للتوازن وإيثاراً له : أما الزيادة : فكما قال تعالى : «وتظنون بالله الظنونا» وكما قال : «فأضلونا السبيلا» .

وأما الحذف : فكما قال جل اسمه :ـ «والليل إذا يسر» وقال : «الكبير المتعال» و«يوم التناد» و«يوم التلاق» [٣] .

---

(١) العرن : الدخان . الوبل : المطر الشديد. البجاد : الثياب ومزمل : أى مدثر ملتف .

(٢) فقه اللغة ص ٢٦٥ .

(٣) فقه اللغة ص ٢٦٧ .

- ٦ -

فصل فى وقوع فعل واحد على عدة معانٍ

من ذلك قولهم (قضى) بمعنى : حتم، كقوله تعالى : «فلما قضينا عليه الموت» .

و(قضى) بمعنى : أمر، كقوله تعالى : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» . أى أمر .

ويكون (قضى) بمعنى : صنع، كقوله تعالى : - «فاقض ما أنت قاض» .

أى فاصنع ما أنت صانع .

ويكون (قضى) بمعنى : حكم، كما يقال للحاكم : قاض و(قضى) بمعنى (أعلم) كقوله تعالى : «وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب» أى أعلمنا .

ويقال للميت (قضى) إذا فرغ من الحياة .(١)

- ٧ -

فصل فى الحشو

وهو على ثلاثة أضرب : -

ضرب منها ردىء مذموم :

كقول الشاعر :

ذكرت أخى فعاودنى ... صداع الرأس والوصب

ذكر : الرأس، وهو حشو مستغنى عنه؛ لأن الصداع مختص بالرأس، فلا معنى لذكره معه .

---

(١) فقه اللغة ص ٣٠٠ .

وأما الضرب الأوسط :

فكقول النابغة :ـ

لعمرى وما عمرى على بهين

لقد نطقت بطلاً على الأقارع

فقوله (وما عمرى على بهين) حشو يتم الكلام بدونه، ولكنه محمود لما فيه من تفخيم اللفظ وتأكيد المراد .

أما الضرب الثالث :

فهو الحشو الحسن اللطيف .

كقول عوف بن محلم :ـ

إن الثمانين ـ وبلغتها ـ قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ومن هذا الضرب قول طرفه :ـ

فسقى ديارك ـ غير مفسدها ـ صوب الربيع وديمة تهمى

فقوله (غير مفسدها) حشو، ولكن ما لحسنه نهاية .

وقول البحترى :ـ

إن السحاب أخاك جاد بمثل ما

جادت يداك لو انه لم يضرر

فقوله (أخاك) حشو، ولكن ما لحسنه غاية [1]

---

(١) فقه اللغة ص ٣١٧ـ ٣١٩ .

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب

هذا الكتاب كتاب في الأدب والثقافة العامة أكثر منه كتاباً في اللغة .

وهو يقع في ٧٠٠ صفحة موزعة على واحد وستين باباً .

الأول : فيما يضاف إلى اسم الله تعالى .

الثاني : فيما يضاف وينسب إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

* * *

ونتجول في بقية الأبواب، فنجد منها :-

الباب التاسع : فيما يضاف وينسب إلى العرب .

الباب العاشر : فيما يضاف وينسب إلى الإسلام والمسلمين .

الباب الخامس عشر : فيما يضاف وينسب إلى طبقات الشعراء .

الباب الثامن عشر : في الآباء والأمهات الذين لم يلدوا . والبنين والبنات الذين لم يولدوا .

وقد تفرد هذا الباب من بين أبواب الكتاب بأنه اشتمل على فصول هي :-

الفصل الأول في الآباء .

الفصل الثاني في الأمهات .

الفصل الثالث في البنين .

الفصل الرابع في البنات[1] .

---

(١) ص ٢٤٥ - ٢٧٨ طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٣٨٤ / ١٩٦٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

فمن أمثلة الفصل الأول : (أبو مرة وهو إبليس) .

وقد كنـ بهذه الكنية؛ لأن الشيخ النجدى الذى ظهر إبليس فى صورته فأشار على قريش بأن يكونوا سيفاً واحداً على النبى صلى الله عليه وسلم، كان يكنى (أبا مرة) .

يقول الثعالبى :-

أنشدنى الخوارزمى لنفسه من أبيات :-

ويا من صبر يوم عنه فى حكم الهوى كفره

ويا من طرفه جيش كثيف لأبى مره

وقد اختار الثعالبى فى ختام هذا الفصل جملة من الكنى، بعضها عن العرب، وبعضها عن المولدين والصوفية .

ومن ذلك :-

الفيل : أبو الحجاج .

الديك : أبو يقظان .

الأرنب : أبو نبهان .

الجبن : أبو مسافر .

الماء : أبو غياث .

اللبن : أبو الأبيض .

الثريد : أبو رزين .

الخوان : أبو الخير، أو أبو جامع .

المزمار : أبو الصخب .

* * *

ومن أمثلة الفصل الثانى (أم الكتاب).

جاء فى بعض الأحاديث أن (أم الكتاب) هى فاتحة الكتاب لأنها هى المقدمة أمام كل سورة تُقرأ فى الصلاة، وهى أول القرآن .

و(أم القرى) أما فى جزيرة العرب، فهى مكة، وأم كل أرض أعظم بلدانها وأكثرها أهلاً كالبصرة، فإنها أم العراق .

ولا توصف القرية بأنها أم القرى إلا إذا كانت كبيرة كثيرة الأهل .

وأم كل شئ أصله، ومنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم (أمى) لأنه نُسب إلى أم القرى، وهى مكة .

ويقال : بل نسب إلى العرب أى أصلهم، وكانوا لا يقرءون ولا يكتبون، فقيل لكل من لايقرأ ولا يكتب (أمى) .

* * *

ومن مختارات الثعالبى (أم شملة) كناية عن الشمس لأنها تشمل الخلق بطلوعها .

و(أم الندامة) كنية العجلة .

و(أم الفضائل) كنية العلم (المعرفة) .

و(أم الرذائل) كنية الجهل (الجهالة) .

* * *

ومن أمثلة الفصل الثالث .

(ابن الحرب) وهو الشجاع الذى تعود الحرب وألفها .

جاء فى إحدى رسائل الصاحب :-

أبناء الحرب هم الذين ذاقوا كئوسها حلوة ومرة والتحفوا لباسها مرة بعد مرة .

* * *

ومن أمثلة الفصل الرابع (ابنة الجبل) كناية عن الصدى .

يقال للإمعة : ابنة الجبل .

يعنى هو مع كل صوت، كما أن الصدى يجيب كل ذى صوت بمثل كلامه .

ومن تشبيهاتهم : كبنت الجبل مهما تقل، تقل .

وقد يعنون بابنة الجبل : الحية، وبنات الدهر مصائبه، وبنات الليل أحلامه .

* * *

والثعالبى يبدأ الباب أو الفصل بما يشبه أن يكون فهرساً له؛ فهو يصدره برءوس موضوعاته، ويعقبها بعنوان ثابت هو : الاستشهاد .

وفى الاستشهاد يسترجع رءوس الموضوعات مرقمة واحدة فى إثر واحدة حتى يأتى عليها كلها، وإذا كانت هناك إضافات له، أضافها دون استشهاد لها كما مر فى نهاية الفصل الأول من الباب الثامن عشر .

* * *

ولنضرب مثلاً صدر الباب الحادى والستين ص ٦٩٤ .

قال :-

الباب الحادى والستون فى الجنان وهو آخر الأبواب .

جنة الدنيا ـ جنة الرجل ـ جنة الفردوس ـ جنة الخلد ـ جنة عدن ـ جنة المأوى ـ جنة المنتهى ـ ظل طوبى ـ باب الجنة ـ روضة الجنة ـ كنوز الجنة ـ ريح الجنة .

الاستشهاد :

١٢٣٣ (جنة الدنيا) : كان يقال للشام جنة الدنيا .

ولما أفرج هرقل عن بلاد الشام للمسلمين، وخرج منها هارباً إلى الروم بكى حتى اخضلت لحيته، وغشى عليه، فلما أفاق قال :

السلام عليك يا سوريا، يا جنة الدنيا سلام غير ملاق .

١٢٣٤ (جنة الرجل) فى الخبر : جنة الرجل : داره .

وأنشدنى المأمونى لنفسه :ـ

أجد صنع المبانى حين تبنى

فليس لمن يحل بها حصون

وأحسن جنة الدنيا إلى أن

يكون من القيامة ما يكون

* * *

وهذا الكتاب (ثمار القلوب ...) كسابقه مما ألفه الثعالبى للأمير أبى الفضل الميكالى، بعد أن أشار عليه به وأمره بتأليفه .

قال فى مقدمته :ـ

هذا الكتاب مترجم بـ (ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب) خدمت فيه خزانة كتب الأمير السيد أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى، عمرها الله تعالى بطول عمره، وعلو أمره، وإن كنت فى ذلك كمهدى العود إلى الهنود، وناقل المسك إلى أرض الترك، وجالب العنبر إلى البحر الأخضر، ولكن ما على الناصح إلا جهده، ولى أسوة فى ابن طباطبا العلوى إذ قال :ـ

لا تنكــرن إهـداءنا لك منطقاً   منك استفدنا حسنه ونظامه

فالله عز وجل يشـكر فعل من   يتلو عليـه وحيـه وكلامـــه

وبعــد :-

فحقيق على من تصفح هذا الكتاب فرتع فى رياضه وجنى من ثماره أن يدعو للآمر به، والداعى إلى إيجاد أسبابه بطول البقاء، ودوام النعماء، ورغد العيش وسكون الجأش، وطول اليد، وعلو الجد، وكفاية المهم، ودفاع الملم .

فأما أنا فأستوفق الله لفرض خدمته، وشكر نعمته، وأسأله مسألة المتضرع لديه، الرافع يديه، بأن يسوق جمل السعود إليه، ويوفر أقسام السعادات عليه، حتى تجمع له حظوظ الدنيا والآخرة، ومصالح العاجلة والآجلة، وأن يقر عين المجد ببقاء الأمراء النجباء من أولاده ويريه فيهم وفى كل ما يسمو إليه بآماله، غاية محبته ونهاية مراده، من حيث لا تهتدى النوائب إلى عراصه، ولا تطمع الحوادث فى انتقاصه .

* * *

الأصوات اللغوية

مدخل :

انتهى التحليل العلمى للتكلم إلى أنه عبارة عن أربع عمليات متتالية ومترابطة تتم على النحو التالى :ـ

١ ـ الأحداث النفسية والعمليات العقلية التى تجرى فى ذهن المتكلم قبل الكلام أو أثناءه.

٢ ـ عملية إصدار الكلام الممثل فى أصوات ينتجها جهاز النطق .

٣ ـ العمليات العضوية التى يخضع لها الجهاز السمعى، والتى وقعت بوصفها رد فعل للموجات والذبذبات المنتشرة فى الهواء .

٤ ـ الأحداث النفسية والعمليات العقلية التى تجرى فى ذهن السامع عند سماعه الكلام واستقباله الموجات والذبذبات الصوتية المنقولة إليه بواسطة الهواء .

ومن الطبيعى أن يشتغل اللغوى بأربع الخطوات السابقة .

لكن الواقع خلاف ذلك، ولا عجب، فقد استقر الأمر لدى اللغويين المحدثين على إهمال العمليتين الأولى والأخيرة للسببين الآتيين :ـ

١ ـ أن هاتين العمليتين نفسيتان وعقليتان .

واللغوى معنى أول الأمر وآخره بالأصوات اللغوية المنطوقة بالفعل .

٢ ـ أن هذه العمليات النفسية العقلية عمليات معقدة وغامضة إلى درجة تجعل الحكم عليها من وجهة النظر اللغوية حكماً تعوزه الدقة ويعوزه الوضوح .

* * *

وإذا كان بعض اللغويين قد استبعد العمليتين الأولى والأخيرة للسببين المذكورين .

فإن منهم من استعاض عن دراستهما بملاحظة أنماط السلوك الإنسانى فى المواقف اللغوية .

ومن هؤلاء العالم الأمريكى (بلومفيلد) صاحب المدرسة المعروفة فى الأوساط اللغوية بالمدرسة السلوكية .

وعنده أن العملية اللغوية فى أبسط صورها يمكن توضيحها بالصورة التالية :

مثير عملى ← ر . ل ... ... م . ل ← رد فعل عملى .

وتفسير ذلك هو :-

المثير العملى هو الموقف الدافع للانسان إلى أن يتكلم .

وهذا المثير العملى فعل يستلزم ممن وجد فى هذا الموقف رد فعل لغوى .

ورد الفعل اللغوى هذا، هو الذى رمز إليه بلومفيلد بالحرفين (ر . ل) أما الحرفان (م . ل) فهما رمزان لكلمتى مثير لغوى .

ف (ر . ل) : تعنى الكلام الصادر من المتكلم بوصفه استجابة للمثير العملى السابق على عملية الكلام .

و(م . ل) ترمز إلى تأثير الموجات والذبذبات الصوتية على أذن السامع فتدفعه إلى القيام بعمل معين قد يكون الكلام، وقد يكون شيئاً آخر غير الكلام، ولهذا قلنا (رد فعل عملى) .

وما النقط التى بين (ر . ل) و(م . ل) إلا رموز للموجات والذبذبات الصوتية المنتشرة فى الهواء .

* * *

ويلخص (بلومفيلد) الموقف الكلامى فى ثلاث النقاط الآتية :-

١ - الأحداث العملية السابقة للكلام، وهى بمثابة المثير أو الدافع الذى يحمل المتكلم على أن يتكلم .

٢ - الكلام نفسه .

٣ - الأحداث العملية اللاحقة للكلام، وهى بمثابة رد فعل واقعى يقوم به السامع .

* * *

وعلى الرغم من هذا التقسيم الذى يتردد بين الرباعى والثلاثى من جانب اللغويين المحدثين وعلى رأسهم (بلومفيلد) إلا أن تركيزهم الشديد قد انصب على القسم الثانى وهو الكلام المنطوق بوصفه المجال الحقيقى للدارسين اللغويين وليس ثمة شك فى أن الكلام المنطوق به يمكن النظر إليه من أكثر من ناحية :

إذ له ناحية صوتية، وناحية صرفية، وناحية نحوية وناحية دلالية .

وعن الناحية الصوتية، وهى موضوعنا نقول :-

إن لها ثلاثة جوانب، وهى جوانب متصلة لا يمكن تصور أحدها بدون الآخر، وهذه الجوانب هى :-

١ - جانب إصدار الأصوات أو الجانب النطقى، وقد يُسمى بالجانب الفسيولوچى أو العضوى للأصوات ويتمثل هذا الجانب فى عملية النطق من قبل المتكلم، وما تنتظمه هذه العملية من حركات أعضاء النطق .

٢ - جانب الانتقال أو الانتشار فى الهواء .

وقد يسمى الجانب الفزيائى .

ويتمثل هذا الجانب فى الموجات الصوتية المنتشرة فى الهواء نتيجة لحركات أعضاء النطق .

٣ - جانب استقبال الصوت أو الجانب السمعى .

ويتمثل هذا الجانب فى تأثر طبلة أذن السامع، وبعبارة أخرى : يتمثل فى ميكانيكية الأذن الداخلية، وفى إيجابية الأعصاب السمعية .

هذه الجوانب الثلاثة تدخل فى مجال علم الأصوات، وهو المختص بها دون غيره من فروع علم اللغة .

لكن تعدد هذه الجوانب أو تنوعها قد اقتضى تعدداً فى مناهج علم الأصوات، واستلزم تبعاً لذلك جعله ثلاثة فروع، كل فرع منها يعالج جانباً من جوانب الصوت ويقوم بدراسته وتحليله وفقاً لطبيعته ومكوناته وهذا ما حدث بالفعل .

فقد ظهر فى الحقل اللغوى ثلاثة فروع رئيسية لعلم الأصوات وهذه الفروع تختلف فيما بينها من حيث نشأتها وتطورها ومن حيث وسائل الدرس فيها ومن حيث قوتها وضعفها ودرجة نموها ونضجها .

وهذه الفروع هى :-

١ - علم الأصوات النطقى أو الفسيولوچى .

٢ - علم الأصوات الفيزيائى .

٣ - علم الأصوات السمعى .

* * *

لم يحظ الفرع الثالث وهو علم الأصوات السمعى باهتمام دارسى اللغة .

ولهم الحق فى عدم الاهتمام به، ذلك أنه لا تكون للصور السمعية قيمة إلا إذا كان السامع قادراً بواسطتها على أن يصير بدوره متكلماً .

وبعبارة أخرى : يجب أن يكون السامع حائزاً بالقوة على ما يحققه المتكلم بالفعل، فعلى هذا الشرط يتوقف وجود الكلام .

وبناء على ما مر يمكن إسقاط الجانب السمعى من دراسة الصوتيات ما دام السماع يفترض وجود قوة مساوية قادرة على إحداث الصوت عندما يتكلم شخصان لغة واحدة بينهما، فليس هناك فى الواقع إلا وجهان لقطعة واحدة من العملة .

وليس هذا فقط، بل إن ثمة صعوبات تعترض اللغوى إذا رغب فى دراسة هذا الفرع .

وهذه الصعوبات هى :-

١ - انتشار الموجات الصوتية على طبلة الأذن، ووقع هذه الموجات على أعضاء السمع شىء لا يمكن إدراكه إلا بوساطة أجهزة خاصة، وحتى مع هذه الأجهزة الخاصة - لو وجدت - نجد أنفسنا نحن اللغويين عاجزين عن إدراك العملية السمعية إدراكاً تحليلياً أى إدراكاً علمياً .

٢ ـ عملية السماع هذه لا يمكن التحكم فيها، فليس الإنسان بقادر على وقف هذه العملية واستئنافها حين يشاء على عكس عملية النطق التى يستطيع المتكلم أن يتحكم فيها بالقطع والاستئناف متى شاء .

٣ـ ما يجرى فى الجهاز السمعى، وكثير من أعضائه، أشياء بعيدة المنال بالنسبة للعين المجردة .

* * *

نترك علم الصوت السمعى إلى :ـ

علم الصوت النطقى

ويدلنا البحث على أنه أقدم فروع علم الأصوات وأرسخها قدماً، وأكثرها حظاً من الانتشار .

ومن أسباب ذلك :

١ ـ أن هذا الفرع يدرس نشاط المتكلم بالنظر فى أعضاء النطق وما يعرض لها من حركات، فيعين هذه الأعضاء، ويحدد وظائفها، ودور كل منها فى عملية النطق .

٢ ـ أن الدراسة فيه تقوم على الملاحظة الذاتية .

والممارسة الشخصية عن طريق ذوق الأصوات .

وتكرار نطقها، وتحديد مناطق النطق، ووصف حركات أعضاء النطق .

وهذه الأمور كلها فى مقدور الباحث العادى، ولا تحتاج إلى عناء كبير، ولا إلى تدريب شاق .

ومجرد الاهتمام بها بتركيز النظر عليها كفيل بخلق قدرات خاصة لدى الدارس تمكنه من الكشف عما يجرى فى جهاز النطق، وعن كشف الحقائق الصوتيه الناتجة عنه .

أضف إلى ذلك أن معظم الأعضاء المسئولة مباشرة عن إصدار الأصوات تخضع للمراقبة بالعين المجردة أو الأدوات المساعدة البسيطة كالمرآة ومجهر الحنجرة والتصوير بالأشعة.

ولقد كانت الدراسات الصوتية القديمة محصورة أو شبه محصورة فى هذا الفرع بوصفه الوسيلة المتاحة التى يمكن الاعتماد عليها فى ذلك الوقت المبكر .

نجد ذلك عند علمائنا العرب فى مؤلفاتهم وفى المصطلحات الصوتية التى خلفوها من ورائهم، كما نجده عند العلماء الأوربيين، وغير الأوربيين .

وهم يأتون فيه تابعين للعلماء العرب .

* * *

وفى نطاق علم الصوت النطقى نجد أن الاعتماد فيه على ذوق الأصوات والملاحظة الذاتية، قد ظل أجيالاً متعاقبة إلى أن استمد علماء الأصوات المعونة من العلوم الأخرى كعلم التشريح وعلم الأحياء وعلم الفسيولوچيا (علم وظائف الأعضاء) .

ولقد كان للعلم الأخير آثار بعيدة المدى فى الكشف عن عملية النطق، وفى التعرف على ما يجرى عند إصدار الأصوات الإنسانية .

ولعله من هنا جاء هذا الاسم الجديد لعلم الأصوات النطقى وهو علم الأصوات الفسيولوچى .

* * *

والآن مع علم الأصوات الفيزيائى وهو يمثل المرحلة الوسطى بين علم الأصوات النطقى وعلم الأصوات السمعى .

ووظيفة هذا الفرع دراسة التركيب الطبيعى للأصوات .

فهو يحلل الذبذبات والموجات الصوتية المنتشرة فى الهواء بوصفها ناتجة عن ذبذبات ذرات الهواء فى الجهاز النطقى المصاحبة لحركات أعضاء هذا الجهاز .

ومعنى هذا أن وظيفته مقصورة على تلك المنطقة الواقعة بين فم المتكلم وأذن السامع بوصفها الميدان الذى ينتظم مادة الدراسة فيه، وهى الذبذبات والموجات الصوتية المشار إليها بالنقط بين (ر . ل) و(م . ل) سابقاً

* * *

ولقد أحدث علم الأصوات الفيزيائى ثورة هائلة فى الدرس الصوتى بتحويله الكلام المنطوق إلى كلام مكتوب تلقائياً .

والمأمول أن يؤدى نجاح العلماء فى هذه الخطوة إلى نجاحهم فى الخطوة المقابلة لها، ونعنى بها تحويل الكلام المكتوب إلى كلام منطوق تلقائياً أيضاً، ولو أن هذه الخطوة ما زالت صعبة .

* * *

ويبذل نشاط هائل ورائع فى سبيل الوصول إلى مرحلة يكون الإنسان فيها قادراً على أن يتكلم فى مكبر للصوت بلغة معينة ويحصل فى الحال على ترجمة لهذا الكلام إلى لغة أخرى فى صورة مكتوبة مثلما هو حاصل بالنسبة للصورة المنطوقة .

وهكذا يخطو هذا الفرع من علم الأصوات خطوات واسعة ليلحق بالفرع الآخر الأسبق منه زمناً والأوسع انتشاراً وهو علم الأصوات النطقى أو الفسيولوچى، بل إنه قد فاقه بما حققه من اكتشافات باهرة .

على أن البحوث الحديثة لا تستطيع الأخذ بأحدهما دون الآخر بسبب أنهما متكاملان، ويمثلان جانبين لشئ واحد هو الصوت الإنسانى .

وإذا كان علم الأصوات النطقى هو الأصل والأسهل .

فإن علم الأصوات الفيزيائى ربما يكون أقرب إلى الدقة وأكثر عوناً على الوصول إلي أعماق الصوت اللغوى وأسراره .

* * *

ولننبه إلى أن هذين الفرعين يعتمدان الآن كل الاعتماد على فرع ثالث للأصوات متمم لهما، ولا يمكن السير فى أحدهما ولا سيما علم الأصوات الفيزيائى بدونه .

هذا الفرع الثالث هو ما يسمى بعلم الأصوات التجريبى أو الآلى أو المعملى .

ووظيفة هذا الفرع ـ كما هو واضح من اسمه ـ إجراء التجارب المختلفة بوساطة الوسائل والأدوات الفنية فى مكان معد لذلك يسمى (معمل الأصوات) .

وهذه الوسائل والأدوات منها ما يخدم علم الأصوات النطقى، ومنها ما يخدم علم الأصوات الفيزيائى .

وعلى الجملة فهى أدوات ووسائل متعددة ومتنوعة فى طرزها ووظائفها وفى دقة نتائجها .

* * *

والاهتمام بعلم الأصوات التجريبى يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، أو قبل ذلك بقليل .

لكن هذا الاهتمام فى ذلك الوقت كان يجرى بصورة فردية .

وعلى وجه أقرب ما يكون إلى الهواية، وإشباع النزعة إلى حب الاستطلاع والمزيد من المعرفة بأسرار الصوت اللغوى .

أما الدفعة الحقيقية لهذا الفرع من الدرس الصوتى، فقد حدثت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عندما ظهرت آثار العلوم الطبيعية فى تطوير البحث اللغوى .

وعندما جاهد اللغويون فى سبيل تأسيس علمهم ومنحه شيئاً من الاستقلال المبنى على النظر الموضوعى فى مسائله .

ويقوم علم الصوت التجريبى الآن بأدوار حيوية لا فى مجال الأصوات اللغوية وحدها، بل فى ميادين كثيرة ذات صلة بالإنسان وحاجاته المباشرة .

كالهاتف والإذاعة المسموعة، وعلاج عيوب النطق والصمم والأجهزة الصوتية الدقيقة[١] .

* * *

(١) علم اللغة العام للدكتور كمال بشر القسم الثانى ص ٩ ـ ٢٦ الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ (واللغة) تأليف ج فندريس . وتعريب عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص ص ٣٢ ـ ٥١ طبعة مكتبة الأنجلو المصرية

الأصوات العربية

أولاً - أعضاء النطق :

الصوت اللغوى أثر سمعى يصدر إرادياً عن أعضاء النطق، وهو يتطلب أوضاعاً محددة وحركات معينة لهذه الأعضاء .

ويلزمنا - ونحن ندرس الصوت اللغوى دراسة علمية - أن نعرف - ولو أقل القليل - عن مصدره وموطنه الأصلى .

وهو أعضاء النطق .

وقبل أن نفعل ننبه إلى أمرين اثنين هما :-

١ - ليست أعضاء النطق جميعها متحركة أى قابلة للتحرك فمعظمها ثابت لا يتحرك، وقليل منها قابل للحركة كاللسان والشفتين .

٢ - التسمية بأعضاء النطق تسمية مجازية .

فأعضاء النطق لا يقتصر عملها على إصدار الأصوات الكلامية بل إن لها وظائف أخرى لا تقل فى الأهمية عن إصدار الأصوات ،

فاللسان مثلاً من وظائفه ذوق الطعام .

والأسنان من وظائفها قضمه وطحنه .

والأنف للشم، والرئتان للتنفس ....

فإصدار الأصوات إذن ما هو إلا وظيفة واحدة من الوظائف الكثيرة التى تقوم بها تلك الأعضاء، وتسميتها بأعضاء النطق - والحالة هذه - تسمية من باب التوسع .

والآن مع أعضاء النطق :-

ـ ١ ـ

الحنجـــرة

موقعها فى أسفل الفراغ الحلقى، وهى تكون الجزء الأعلى من القصبة الهوائية .

ولكى نتصورها نشبهها بحجرة ضيقة مكونة من عدد من الغضاريف، أحدها وهو الجزء العلوى منها ناقص الاستدارة من الخلف، وعريض بارز من الأمام، ويعرف الجزء الأمامى منه بتفاحة آدم .

ويوجد فوق الحنجرة شىء يشبه اللسان، يسمى :

(لسان المزمار)، وظيفته حماية الحنجرة .

ولما لم يكن للسان المزمار دخل مباشر فى تكوين الصوت اللغوى ألحقناه بالحنجرة .

ـ ٢ ـ

الوتران الصوتيان

وقد يسميان (الحبال الصوتية) وهما شفتان تمتدان داخل الحنجرة أفقياً من الخلف إلى الأمام، ويلتقيان عند البروز المعروف بتفاحة آدم، والفراغ الموجود بينهما هو المسمى (المزمار) .

وللوترين الصوتيين قدرة على الحركة وعلى اتخاذ أوضاع مختلفة تؤثر فى الأصوات الكلامية .

وأهم هذه الأوضاع أربعة هى :ـ

١ ـ الوضع الخاص بالتنفس .

٢ ـ وضعهما فى حالة تكوين نغمة موسيقية .

٣ ـ وضعهما فى حالة الوشوشة .

٤ ـ وضعهما فى حالة تكوين همزة القطع .

أولا :- وضع الوترين فى حالة التنفس .

وفيه ينفرج الوتران الصوتيان انفراجاً يسمح للنفس أن يمر من خلالهما دون أن يلقى أى اعتراض أو مانع .

ويحدث فى هذه الحالة ما يسمى فى الاصطلاح الصوتى بالهمس فى مقابلة الجهر .

وتسمى الأصوات التى تنطق حينئذ (الأصوات المهموسة) .

ثانيا :- وضع الوترين الصوتيين عند إصدار نغمة موسيقية .

وفيه يتضام الوتران الصوتيان أو ينطبقان انطباقاً جزئياً يسمح للهواء المندفع من خلالهما أن يفتحهما ويغلقهما بسرعة وانتظام، ومن ثم ينتج ما يعرف بذبذبة الأوتار الصوتية، وهى ذبذبة تحدث نغمة موسيقية .

وقد اصطلح علماء الأصوات على تسمية هذه النغمة بالجهر فى مقابلة الهمس .

كما اصطلحوا على تسمية الأصوات التى تصحبها بالأصوات المجهورة .

ثالثا :- وضع الوترين فى حالة الوشوشة .

فى هذه الحالة يكون الوتران فى وضع قريب من وضعهما فى حالة الجهر، ولكن بفارق مهم هو تصلبهما وتجمدهما بحيث لا يصدران أية ذبذبة .

والمعروف أن الأصوات المجهورة فى الكلام العادى تستبدل بأصوات (مسرُة) فى حالة الوشوشه على حين تبقى الأصوات المهموسة على حالها .

رابعا :- وضع الوترين عند تكوين همزة القطع .

فى هذا الوضع ينطبق الوتران الصوتيان انطباقاً تاماً لفترة زمنية قصيرة بحيث لايسمحان للهواء بالمرور من أو إلى الرئتين .

ثم يحدث ذلك الانفراج المفاجئ الذى يعقبه أو يصحبه صوت انفجارى نتيجة لاندفاع الهواء .

هذا الصوت الانفجارى هو ما تسميه اللغة العربية (همزة القطع) .

ويظهر أن التسمية العربية قد لاحظت تلك السمة البارزة فى عملية نطق هذا الصوت الانفجارى وهى (قطع النفس) .

ـ ٣ ـ

الحلـــق

وهو الجزء الذى يقع بين الحنجرة والفم، وقد يسمى بالفراغ الحلقى أو التجويف الحلقى، وهو الفراغ الواقع بين أقصى اللسان والجدار الخلفى للحلق .

ـ ٤ ـ

اللســـان

اللسان من أهم أعضاء النطق، ولأهميته سميت اللغات به، يقولون (اللسان العربى) و(لسان العرب) يعنون اللغة العربية .

ومثل ذلك فى اللغة الانجليزية حيث تطلق الكلمة Tongue ومعناها (لسان) على اللغة الانجليزية .

واللسان عضو مرن أى شديد القابلية للحركة ويستطيع لهذا أن يتخذ أوضاعاً وأشكالاً متعددة .

وقد جرت العادة على جعله أقساماً ثلاثة هى :

(أ) أقصى اللسان أو مؤخره، وهو الجزء المقابل للحنك اللين أو ما يسمى أقصى الحنك .

(ب) وسط اللسان أو مقدمه، وهو الجزء المقابل للحنك الصلب أو ما يسمى : وسط الحنك .

(جـ) طرف اللسان : وهو الجزء الذى يقابل اللثة .

* * *

وثمة أجزاء أخرى للسان منها نهايته أو ذلقه .

والحقيقة أن هذا الجزء يدخل فى القسم الثالث وهو طرف اللسان .

ـ ٥ ـ

الحنـــك

وقد يسمى سقف الفم أو سقف الحنك أو الحنك الأعلى، وهو ثلاثة أقسام تواجه أقسام اللسان:

(أ) أقصى الحنك أو الحنك اللين .

(ب) وسط الحنك أو الحنك الصلب .

(جـ) مقدم الحنك أو اللثة .

* * *

ويدرك الفرق بين الحنك اللين والحنك الصلب بالنظر فى المرآة أو باللمس باللسان أو بالأصبع .

والحنك الصلب ثابت لا يتحرك، أما الحنك اللين فقابل للحركة، وهو يتحرك إلى أعلى وإلى أسفل .

وإذا تحرك إلى أعلى، فإنه يمس الجدار الخلفى للفراغ الحلقى ويمنع الهواء الصادر عن الرئتين من المرور فى الأنف .

وكثير من الأصوات العربية يتكون عندما يتخذ الحنك اللين هذا الوضع كأصوات الباء والتاء والسين والصاد وغيرها، أما إذا انخفض، فإن الطريق أمام الهواء الخارج من الرئتين إلى الأنف ينفتح .

وصوتا (الميم) و(النون) لا ينطقان إلا عندما يتخذ الحنك اللين هذا الوضع .

ـ ٦ ـ

اللهـــاة

وهى نهاية الحنك اللين، ولها دخل فى نطق صوت القاف كما نؤديه ونحن نقرأ القرآن الكريم .

- ٧ -

التجويف الأنفى

وهو تجويف يندفع الهواء من خلاله عندما ينخفض الحنك اللين، فينفتح الطريق أمام الهواءالخارج من الرئتين ليمر من الأنف .

- ٨ -

الشفتان

الشفتان عضو مهم من أعضاء النطق، وهو عضو متحرك يتخذ أوضاعاً مختلفة وقت النطق، ويؤثر ذلك فى نوع الأصوات وصفاتها .

ويظهر هذا التأثير بوجه خاص فى نطق الأصوات المسماة بالحركات .

وقد تنطبق الشفتان انطباقاً تاماً، كما قد تنفرجان ويتباعد ما بينهما إلى أقصى حد .

وبين هاتين الدرجتين من الانطباق والانفتاح درجات مختلفة .

ويحدث الانطباق التام فى نطق الباء .

ويحدث الانفراج الكبير فى تأدية صوت الكسرة .

- ٩ -

الأسنان

الأسنان من أعضاء النطق الثابتة، وهى قسمان عليا وسفلى .

وللأسنان وظائف مهمة فى عدد من الأصوات، فاللسان يعتمد عليها فى نطق الدال والتاء كما تقع الأسنان العليا فوق الشفة السفلى عند النطق بالفاء .

. . .

تلك هى أعضاء النطق التى يجب الإلمام بها وبوظائفها على كل دارس للأصوات .

وما ذكرناه فى التعريف بها كاف فى تصورها .

لكن ثمة عضواً مهما تجدر الإشارة إليه هنا وهو :

ـ ١٠ ـ

الرئتــان

فهما لا تقلان فى الأهمية عن أى عضو من أعضاء النطق السابقة، بل إنهما أهم منها كلها .

فبغير الرئتين لا تتم عملية التنفس .

ومن ثم لا تتم عملية النطق .

بل لا تكون الحياة أصلاً (١) .

---

(١) الأصوات اللغوية للمرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ص ١٦ ـ ١٩ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧١ وعلم اللغة العام للدكتور كمال بشر ص ٨١ ـ ٩٠ .

ثانيا : الأصوات

الأصوات العربية قسمان :-

١ - أصوات صامتة : وهى الحروف، وقد تسمى الأصوات الساكنة .

٢ - أصوات صائتة : وهى الحركات، وقد تسمى أصوات اللين .

وهذا التقسيم مبنى على أمرين هما :-

١ - أوضاع الأوتار الصوتية وقت النطق .

٢ - خط سير الهواء من الحلق والفم أو الأنف .

الصوت الصامت

هو كل صوت يحدث أثناء النطق به اعتراض كلى فى مجرى الهواء كالباء والدال واللام (الأصوات الشديدة) أو اعتراض جزئى كالسين والشين والصاد (الأصوات الرخوة) .

ومن الأصوات الصامتة تلك الأصوات التى لا يمر الهواء أثناء النطق بها من الفم، وإنما من الأنف كالميم والنون .

وكذلك الأصوات التى ينحرف هواؤها، فلا يخرج من وسط الفم؛ وإنما من جانبيه أو أحدهما كاللام[1] .

وعلى العكس من ذلك كله :-

الصوت الصائت

وهو الصوت الذى يحدث أثناء النطق به أن يمر الهواء حراً طليقاً خلال الحلق والفم دون أن يقف فى طريقه أى عائق أو حائل، ودون أن يضيق مجرى الهواء بحيث يحدث احتكاك .

* * *

---

(١) ذكرنا اللام هنا وقد سبق ذكرها تمثيلاً بها للاعتراض الكلى فى مجرى الهواء، ولا تناقض؛ فبعد الاعتراض التام فى طريق هوائها لا يخرج هذا الهواء مستقيماً كما فى الباء والدال بل ينحرف إلى جانبى الفم ويخرج منهما .

وقد أعطى العرب الأصوات الصامتة عناية خاصة .

ووجهوا إليها كل جهودهم، فهى التى أخضعوها للتصنيف والتقسيم، وهى التى نظروا فيها نظراً جاداً من حيث مخارجها وصفاتها المختلفة .

وبالرغم مما قالوا وكتبوا، وعلى كثرة مادرسوا وبحثوا .

لم يعطوا تعريفاً دقيقاً لهذه الحروف، وإنما اقتصروا على وظيفة واحدة من وظائفها؛ وهى كونها المادة الصوتية التى تتألف منها أصول الكلمات مهما اختلفت صورها وصيغها الصرفية .

ومن مظاهر الاهتمام بها تقسمها ثلاثة تقسيمات باعتبارات مختلفة .

التقسيم الأول

هو تقسيم منظور فيه إلى وضع الأوتار الصوتية أثناء النطق بالحروف على الوجه الآتى :-

١ - ينفرج الوتران الصوتيان أثناء مرور الهواء من الرئتين بحيث يسمحان له بالخروج .

دون أن يلقى أى اعتراض فى طريقه، ومن ثم لا يتذبذب الوتران الصوتيان، وفى هذه الحالة يحدث ما يسمى بالهمس .

والصوت اللغوى الذى ينطق به فى هذه الحالة يسمى (الصوت المهموس)

فالصوت المهموس إذن هو الصوت الذى لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به .

والأصوات المهموسة فى اللغة العربية كما ينطقها مجيدو القراء أو كما ينطقها علماء اللغة هى :-

ت ث ح خ س ش ص ط ف ق ك هـ = ١٢

٢ - يقترب الوتران الصوتيان بعضهما من بعض وقت مرور الهواء وأثناء النطق .

فيضيق الفراغ بينهما، بحيث يسمح بمرور الهواء مع حدوث اهتزازات منتظمة لهذه الأوتار .

وفى هذه الحالة يحدث ما يسمى بالجهر .

ويسمى الصوت اللغوى المنطوق حينئذ بالصوت المجهور .

فالصوت المجهور إذن هو الصوت الذى تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به .

والأصوات الصامتة المجهورة فى اللغة العربية هى :-

ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م ن والياء فى نحو (يلعب، بيض) والواو فى نحو (ورث)، (أولم) = ١٥

٣ - ينطبق الوتران انطباقاً تاماً لا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق مدة هذا الانطباق، فينقطع النفس لحظة، ثم ينفرج الوتران فجأة، فيخرج صوت انفجارى نتيجة لاندفاع الهواء الذى كان محبوساً، هذا الصوت هو همزة القطع .

فهمزة القطع إذن صوت صامت لا هو بالمهموس ولا بالمجهور .

نقرر ذلك ونحن نعلم أن بعض الدارسين قدعدها صوتاً مهموساً، وبعضهم قد عدها صوتاً مجهوراً ومن القسم الثانى جمهور علماء العربية (١) .

التقسيم الثانى

وهو تقسيم الأصوات الصامتة بحسب مخارجها .

وليكن مفهوماً أن إضافة حرف معين إلى عضو واحد بحسبانه مصدره أو مخرجه، لايعنى أن هذا الصوت قد صدر عن هذا العضو وحده .،

فقد يشترك عضوان أو أكثر فى إصدار صوت واحد،

وقد يكون موضع النطق التقاء عضو بآخر ،

وإذن فقولنا مثلاً :

إن الراء صوت لثوى، ليس معناه أن اللثة وحدها هى موضعه، فاللسان شريك للثة فى نطقه : إذ أن طرفه يلتقى باللثة وقت التلفظ به ،

(١) انظر علم اللغة العام د. كمال بشر ص ١٠٩ - ١١١ .

وهذا الالتقاء هو مخرجه أى موضع نطقه .

وهذا بيان بالأصوات الصامتة حسب مخارجها :ـ

أ ـ أصوات شفوية :ـ

وهى الباء والميم .

قيل : والواو فى نحو (وعد، ولد) .

وليس هذا القول خطأ محضاً؛ فللشفتين دخل كبير فى نطق هذا الصوت، ولكن الوصف الأدق أن يقال :ـ

إنه من أقصى الحنك، إذ عند النطق به يقترب اللسان من هذا الجزء من الحنك .

٢ ـ صوت أسنانى شفوى وهو الفاء .

٣ ـ أصوات ما بين الأسنان وهى الثاء، والذال، والظاء .

٤ ـ أصوات أسنانية ـ لثوية .

وهى التاء والدال والضاد والطاء واللام والنون .

٥ ـ أصوات لثوية وهى الراء والزاى والسين والصاد .

ونلاحظ أن مخرجى ٤، ٥ متقاربان جداً .

٦ ـ أصوات لثوية حنكية وهى الجيم الفصيحة والشين .

٧ ـ أصوات وسط الحنك وهى الياء .

ونلاحظ أن مخرجى ٦، ٧ متقاربان جداً .

٨ ـ أصوات أقصى الحنك وهى الخاء والغين والكاف والواو .

٩ ـ أصوات لهوية : وهى القاف كما فى (قلقيلة) بالنطق الفصيح .

١٠ـ أصوات حلقية : وهى العين والحاء .

١١ـ أصوات حنجرية وهى الهمزة والهاء .

* * *

وإذا كانت المخارج هنا أحد عشر، فإن بعضهم قد أوصلها إلى ستة عشر، وبناء عليه تكون أنواع الأصوات عندهم ستة عشر نوعاً لا أحد عشر[1] .

التقسيم الثالث

هذا التقسيم يقوم على حالة مرور الهواء فى مواضع النطق بمعنى أننا سنصنف الأصوات الصامته باعتبار ما يلقاها فى المرات الهوائية من عوائق تمنع خروج الهواء منعاً باتاً أو منعاً جزئياً .

وقد تكون العوائق بحيث تغير خط سير الهواء وتنحرف به من عضو إلى آخر .

والمجموعات الصوتية فى هذا التقسيم هى :ـ

١ ـ الأصوات الانفجارية، وقد تسمى الوقفات .

وهى الباء، التاء، الدال، الضاد، الطاء، الكاف، القاف، الهمزة = ٨ .

٢ ـ الأصوات الاحتكاكية، وهى : الفاء، الثاء، الذال، الظاء، الزاى، السين، الشين، الصاد، الخاء، الغين، الحاء، العين، الهاء، = ١٣ .

٣ ـ صوت انفجارى احتكاكى أى مركب وهو الجيم = ١ .

٤ ـ صوت مكرر وهو الراء = ١ .

٥ ـ صوت جانبى وهو اللام = ١ .

٦ ـ أنصاف الحركات، وتتمثل فى الواو والياء والألف = ٣ .

* * *

---

(١) الأصوات اللغوية ص ١٩ ـ ٢٢ وعلم اللغة العام القسم الثانى ص ١١٢ ـ ١١٣ .

وقد اختصر علماء العرب هذه الأقسام إلى ثلاثة هى :-

١ـ الأصوات الشديدة :-

وهى الأصوات الانفجارية وعددها كما قلنا ثمانية .

٢ـ الأصوات الرخوة :-

وهى الأصوات الاحتكاكية وعددها ثلاثة عشر .

٣ـ الأصوات المتوسطة :-

وهى بقية الأصوات العربية، وهى تضم أنواعاً مختلفة فى الصفات والسمات جمعوها فى قولهم (لم نرع) وزاد بعضهم على هذه الأصوات الواو والياء والألف وجمعوا الكل فى قولهم (لم يروعنا) [١] .

(١) الأصوات اللغوية ص ٢٢ ـ ٢٦ وانظر علم اللغة العام القسم الثانى ص ١٢٤ ـ ١٢٦ و(اللغة) ص ٦٢ .

الحـــركـــات

لا نجاوز الحقيقة إذا قررنا أن علماء العربية القدامى لم يعنوا بالحركات العناية اللائقة بها، فقد نظروا إليها على أنها أمور عارضة تعرض للأصوات الصامتة، أى أنها تبع لها وليست مستقلة مثلها .

فأصول الكلمات عندهم مكونة من الأصوات الصامتة، وهذه الأصوات هى الأساس .

أما الأصوات الصائتة أى الحركات، فهى أصوات من شأنها أن تعطى الصيغة أو الوزن.

وعذر العرب فى ذلك أن العربية الأولى لم تكن فيها حروف أو رموز مستقلة للحركات، وكانت الأصوات الصامتة وحدها قوام الكتابة، أما الحركات فتستنتج بواسطة السياق .

وظل الأمر كذلك حتى بعد اختراع أبى الأسود الدؤلى والخليل للحركات .

* * *

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء العرب قد أدركوا معنى هذه الأصوات التى سموها الحركات، كما كانوا على علم بالفرق بينها وبين الأصوات الصامتة فى النطق والصفات، وكذلك أدركوا أن هناك حركات قصيرة، وأخرى طويلة، وعبروا عن القصر والطول بعبارات دقيقة واقرأ قول ابن جنى فى سر الصناعة جـ ١ ص ١٩ .

«اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهى الألف والياء، والواو» .

فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهى الفتحة والكسرة والضمة .

فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو .

وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة : الألف الصغيرة والكسرة : الياء الصغيرة، والضمة : الواو الصغيرة، وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة» .

وهذا النص يعطى من الحقائق .

١ ـ الحركات الأساسية فى اللغة العربية ثلاث هى :

الفتحة والكسرة والضمة .

٢ ـ هذه الحركات قد تكون قصيرة، وقد تكون طويلة :

فالقصيرة معروفة، وهى ما أسماها ابن جنى بالحركات .

والطويلة هى ما سماها بحروف المد واللين .

* * *

وهذه الحركات الثلاث أو الست قد تعتريها صفات مختلفة بحسب السياق الذى تقع فيه .

فهى مفخمة مع أصوات الإطباق .

(الصاد ـ الضاد ـ الطاء ـ الظاء) .

وهى بين التفخيم والترقيق مع .

(القاف ـ الغين ـ الخاء) .

ثم هى مرققة فى المواقع الصوتية الأخرى .

* * *

فلدينا إذن بحسب النطق الفعلى ثلاثة أمثلة للفتحة، مضروبة فى اثنتين : قصيرة وطويلة، إذ أنَّ الفتحة الطويلة يعتريها ما يعترى الفتحة القصيرة من التفخيم والترقيق وما بينهما .

وما قلناه فى الفتحة نقوله فى الضمة والكسرة، فهما مفخمتان مع أصوات الإطباق، وبين التفخيم والترقيق مع القاف والغين والخاء، ومرققتان مع الأصوات الأخرى .

فالحركات العربية إذن تسع أو ثمانى عشرة هذا من حيث الكم .

أما من حيث الكيف، أى من حيث كونها تفرق أو لا تفرق بين معانى الكلمات، فهى ثلاث أو ست. إذ كان الطول والقصر مما تختلف به المعانى .

وتفسير ذلك أن الفتحة بأنواعها الثلاثة تستوى من حيث التفريق وعدم التفريق بين معانى الكلمات فالفرق فى المعنى بين (صبر) و(سبر) ليس راجعاً إلى وجود الفتحة المفخمة فى الأولى، والمرققة فى الثانية، بل راجع إلى وجود الصاد فى الأولى والسين فى الثانية .

وكذلك الفرق بين (صم) و(قم) ليس راجعاً إلى تفخيم الضمة فى الأولى وكونها بين بين فى الثانية .

ولكنه راجع إلى وجود الصاد فى الأولى والقاف فى الثانية .

وهكذا الحال فى الكسرة .

معنى ذلك أن أنواع الفتحة لا تفرق بين المعانى، وكذلك أنواع الكسرة، والضمة، وإنما الذى يفرق هو الفتحة نفسها بوصفها ليست كسرة وليست ضمة والضمة بوصفها ليست كسرة أو فتحة، والكسرة بوصفها ليست ضمة أو فتحة .

ويتضح ذلك أكثر من الأمثلة الآتية :-

	صبر	(فتحة مفخمة)	الفرق لا يرجع إلى نوع الفتحة
الفتحة	سبر	(فتحة مرققة)	فوق الحروف الأولى وإنما يرجع
	قبر	(فتحة بين بين)	إلى اختلاف هذه الحروف

* * *

	صيام	(كسرة مفخمة)	الفرق لا يرجع إلى نوع الكسرة
الكسرة	نيام	(كسرة مرققة)	تحت الحروف الأولى، وإنما
	قيام	(كسرة بين بين)	يرجع إلى اختلاف هذه الحروف

* * *

	صم	(ضمة مفخمة)	الفرق لا يرجع إلى نوع الضمة
الضمة	دم	(ضمة مرققة)	على الحروف الأولى، وإنما يرجع
	قم	(ضمة بين بين)	إلى اختلاف هذه الحروف

* * *

والخلاصـــة :

أن الحركات من حيث النطق تسع، وكل حركة إما قصيرة وإما طويلة، وهى بهذا الاعتبار ثمان عشرة .

لكنها من حيث الوظيفة ثلاث فقط .

ويمكن أخذ الطول والقصر فى الاعتبار؛ لأهميته فى المعانى أحياناً، فهى إذن ست[1] .

---

(١) الأصوات اللغوية ص ٢٦ ـ ٢٨، ٣٧ ـ ٤١ وكلام العرب للدكتور حسن ظاظا ١٠ ـ ٤٠ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠ .

بين
لغة قريش ولهجة تميم

حين ظهر الإسلام وجد لغة نموذجية موحدة .

وقد شد القرآن من أزر هذه اللغة بنزوله بها، لكن ذلك لا ينفى وجود لهجات أخرى غير اللغة النموذجية قبل الإسلام، وبقاءها بعده .

فمن المؤكد أن عامة العرب لم يكونوا إذا عادوا إلى أقاليمهم يتحدثون باللغة النموذجية الموحدة وإنما كانوا يتحدثون بلهجاتهم الخاصة .

قال ابن هشام :-

كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التى فطر عليها .

ولعله من هنا تعددت الروايات فى بعض الأبيات .

ويبدو أن اللغويين الأقدمين لم يعرضوا اللهجات العربية فى العصور المختلفة عرضاً مفصلاً يقفنا على الخصائص التعبيرية والصوتية لتلك اللهجات. لأنهم شغلوا عن ذلك باللغة الأدبية الفصحى التى نزل بها القرآن، وصيغت بها الآثار الأدبية منذ الجاهلية .

وهم لشعورهم بعدم توفرهم على دراسة هذا الموضوع دراسة دقيقة عميقة، كانوا يتخلصون من اختلاف اللهجات ومن الآثار المترتبة على هذا الاختلاف بالاعتراف بتساويها جميعاً فى جواز الاحتجاج بها .

فهذا ابن جنى على عنايته بدقائق الدراسة اللغوية لا يتردد فى كتابه الخصائص فى عقد فصل خاص حول ما سماه (اختلاف اللغات وكلها حجة) .

وهو يقصد باللغات اللهجات العربية المختلفة .

وينص على جواز الاحتجاج بها جميعاً، ولو كانت خصائص بعضها أكثر شيوعاً من البعض الآخر فيقول :-

إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب لكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتين، فأما إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع، فإنه مقبول منه غير منعى عليه، وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه (١) .

* * *

وغير بعيد عن تساوى اللهجات فى الاحتجاج بها على الصحة اللغوية، ما عرف بتداخل اللغات، وكان سبباً فى ظاهرة الترادف فى اللغة العربية .

حدث الأصمعى قال :

اختلف رجلان فى (الصقر) فقال أحدهما : (الصقر) بالصاد، وقال الآخر : (السقر) بالسين .

فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه، فقال :

لا أقول كما قلتما، إنما هو (الزقر) .

ويعلق ابن جنى على هذه الحكاية بقوله :ـ

أفلا ترى إلى كل واحد من الثلاثة كيف أفاد فى هذه الحال إلى لغته لغتين أخريين معها .

وهكذا تتداخل اللغات (٢) .

وبسبب من هذه التسوية بين اللهجات العربية فى جواز الاحتجاج بها وقع علماء النحو والصرف فى كثير من الاضطراب والتناقض .

ولاعجب فقد استنبطوا قواعدهم النحوية والصرفية من كل ما روى عن القبائل، وأقحموا على الفصحى خصائص اللهجات، وهى خصائص ذاتية محضة، إن وجدت فى لهجة، فإنها قد لا توجد فى لهجة أخرى .

وإن جاءت فى لهجة بعينها فى حالة، فإنها قد لا تجئ فى حالة أخرى .

* * *

(١) الخصائص جـ ١ ص ٤١١ مطبعة الهلال بمصر سنة ١٣٣١ هـ .
(٢) الخصائص جـ ١ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .

نجد فى الباب الواحد من أبواب النحو قواعد عدة فقاعدة تستند إلى كلام رجل من أسد، وقاعدة تستند إلى كلام رجل من تميم .

وقاعدة ترجع إلى جملة لقريش .

ونجد على القاعدة الواحدة تفريعاً دعا إليه بيت لشاعر جاهلى، واستثناء مبنياً على شاهد واحد اضطر فيه الشاعر إلى أن يركب الوعر حتى يستقيم له وزن البيت .

ومنشأ هذا كله خلطهم بين اللغة الأدبية المثالية الموحدة التى هى لغة الخاصة وبين لهجات التخاطب لدى القبائل المنتشرة فى البادية .

على حين أن شرط اللغة إنما هو الاطراد والتوحد فى الخصائص .

والحق أن العرب ـ ككل الشعوب ـ كانوا ـ قبل الإسلام وبعده ـ منقسمين إلى فئتين : ـ

فئة الخاصة التى كانت تحرص على صقل لغتها، وتجتهد فى تحسينها، فتسمو فى تعابيرها إلى مستوى أرفع من مستوى التخاطب العادى .

وفئة العامة التى كانت تكتفى بحظ قليل من فصاحة القول وبلاغه التعبير. أما فيما عدا ذلك فإنها كانت تمضى تبعاً لتقاليدها الخاصة، وبيئاتها الجغرافية إلى الاستقلال فى صياغة جملها، وتركيب مفرداتها ونطق حروفها .

* * *

وليس من شك فى أن البيئة الحضرية فى مكة والمدينة كانت لهجتها بضرورة الحال تختلف عن لهجات البيئات البدوية المنعزلة ،

فمهما صقلت اللغة العربية .

ومهما توحدت قبل الإسلام، ومهما قويت وحدتها، وكمل صقلها بعده، فإننا لا نستطيع أن نتصورها إذ ذاك إلا مؤلفة من وحدات لغوية مستقلة منعزلة متمثلة فى قبائلها الكثيرة المتعددة(١).

---

(١) انظر دراسات فى فقه اللغة للدكتور صبحى الصالح مطبعة جامعة دمشق ١٣٧٩ / ١٩٦ ص ٥٧ وما بعدها .

على أن الكتب التى عرضت لتلك اللهجات كثيراً ما تغفل أسماء قبائل معينة تنسب إليها لهجة ما .

ومن خلال الكتب المذكورة على ندرتها نستنتج أن أشهر القبائل التى تروى لها لهجات خاصة تختلف عن اللغة الأدبية المثالية اختلافاً محسوساً هى :

تميم وطيىء، وهذيل .

وهى قبائل بدوية ضاربة فى أعماق الصحراء ومعروفة بالفصاحة .

ومع كثرة من ينتمى إلى هذه القبائل من الشعراء ،

نلاحظ أن أحداً من رجال الطبقة الأولى لم ينسب إليها، والمنتسبون إليها من الجاهليين قليلون ومقلون .

فمن التميميين : أوس بن حجر، وسلامة بن جندل وعلقمة ابن عبدة، وعدى بن زيد، وعمرو بن الأهتم والبراق بن روحان، والأسود بن يعفر .

ومن الطائيين : حاتم الطائى، وأبو زبيد الطائى، وإياس بن قبيصة .

ومن الهذليين : أبو ذؤيب الهذلى، وعامر بن حليس، وخويلد بن خالد[١] .

* * *

وإذا سمحنا لأنفسنا بتضييق نطاق البحث فى اللهجات العربية المختلفة، فإن أدنى ما يمكننا الاقتصار عليه من ذلك لهجتان عظيمتان :

إحداهما حجازية غربية هى (القرشية) .

والأخرى نجدية شرقية هى (التميمية) .

إننا إذا لم نعرف هاتين اللهجتين سنعجز عجزاً تاماً عن أن نعلل تعليلاً علمياً صحيحاً دقيقاً وجود :-

---

(١) اللهجات العربية للمرحوم الدكتور ابراهيم أنيس ص ١٤٠ ودراسات ص ٥٨ .

تِعلم ونِعلم بكسر حرف المضارعة إلى جانب

تعلم ونعلم بفتحه ..

ووجود : حُمْر وجُمْعه إلى جانب

حُمُر وجُمُعه .

ووجود : حقِد يحقدَ الى جانب حقَدَ يحقِد

ووجود : مديون إلى جانب مدين .

والأولى فى جميع هذه الأمثلة لتميم، والأخرى لقريش .

* * *

وإذا كانت لهجة قريش بسبب العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية، قد أصبحت اللغة العربية الفصحى والمقصودة بالفصحى على الإطلاق .

فإن ذلك لا يمنع ولم يمنع من وجود حالات كانت لغة تميم أو لهجة تميم فيها أقوى منها قياساً وأعذب مراساً .

أجـــل .

ففى المصادر القديمة بعامة، وفى المعاجم اللغوية بخاصة ما يشير إلى أن من قواعد اللهجة التميمية ما هو أسلم وأقوى من بعض القواعد القرشية، بل إن فيها ما يكاد الباحث يستنتج منه ـ وهو مطمئن ـ أن لهجة تميم كانت فى كثير من مفرداتها وتراكيبها هى اللهجة التى ينطق بها أغلب المتكلمين باللغة العربية .

فهذا سيبويه يذكر كيف يراعى التميميون القياس فى كسر أوائل الأفعال المضارعة، ويقرر بوضوح أن ذلك إنما هو لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز .

* * *

ويؤكد ابن منظور هذا القول بعد أن يوضحه أكثر فيقول :ـ

و(تعلم) بالكسر : لغة تميم وقيس وأسد وربيعة وعامة العرب .

وأما أهل الحجاز، وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل، فيقولون : تعلم بالفتح : وهو ما جاء فى القرآن الكريم(١) .

* * *

وفى الباب الذى عقده ابن جنى فى كتابه (الخصائص) لتعارض القياس والسماع، يعترف بأن التميمية أكثر مراعاة للقياس من القرشية .

ويبين الفرق بين ما كان أقوى قياساً، وما كان أكثر استعمالاً فيقول :-

وإن شذ الشئ فى الاستعمال، وقوى فى القياس كان استعمال ما كثر استعماله أولى .

ويضرب لذلك مثلاً (ما) فى لهجتى تميم وقريش .

فهى فى اللهجة التميمية أقوى قياساً بسبب أنها عندهم مثل (هل) فى دخولها على الكلام مباشرة، يستوى فى ذلك ان يكون ما دخلت عليه اسماً أم فعلاً .

ولما كانت (هل) لا تنصب خبر المبتدأ كانت (ما) مثلها .

هذا هو قياسها، ولكننا لا نطبقه أى لا نلتزم به فى الكلام، لأننا نتبع الاستعمال الأكثر، وهو لهجة قريش التى عززها القرآن الكريم بنزوله بها .

لكن إذا حصل فى الجملة شئ كتقديم الخبر، أو نقض النفى، رجعنا إلى التميمية، فكأننا من الحجازية على حافة رمل .

ونوضح ذلك أكثر فنقول :-

قسم النحاة (ما) النافية إلى حجازية وتميمية، والخبر فى الحجازية منصوب، وفى التميمية مرفوع .

وقد جاء القرآن بـ (ما) حجازية فقال :

(ما هذا بشراً) .

---

(١) لسان العرب جـ ٢٠ ص ٢٨٣ .

ويقرب من هذا الخلاف الإعرابى، ما دار حول خبر ليس إذا اقترن بإلا :

فتميم ترفع هذا الخبر حملاً لليس على (ما) النافية .

أما قريش فتنصبه إطلاقاً .

ويروون فى هذا قصة طريفة لا ندرى أصحيحة هى أم غير صحيحة، ومهما يكن من شئ، فهى تعطى صورة صادقة للجدل العلمى حول بعض الأمور اللغوية .

وقد وردت هذه القصة فى كتاب الأمالى لأبى على القالى .

قال :-

حدثنا أبو بكر بن دريد قال : حدثنا أبو حاتم قال : سمعت الأصمعى يقول :-

جاء عيسى بن عمر الثقفى ونحن عند أبى عمرو بن العلاء فقال :-

يا أبا عمر : ما شئ بلغنى عنك تجيزه ؟ !!

قال : وما هو ؟ قال بلغنى أنك تجيز :-

ليس الطيب إلا المسك بالرفع .

قال أبو عمرو : ذُهب بك يا عيسى بن عمر. نمت وأدلج الناس، ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب، ولا فى الأرض تميمى إلا وهو يرفع،

ثم قال أبو عمر : قم يا يحيى - يعنى اليزيدى - وأنت يا خلف - يقصد خلفاً الأحمر - فاذهبا إلى أبى المهدى، فلقناه الرفع فإنه لا يرفع .

واذهبا إلى أبى المنتجع، فلقناه النصب، فإنه لا ينصب .

قال : فذهبنا فأتينا أبا المهدى، فإذا هو يصلى، فلما قضى صلاته التفت إلينا وقال : ما خطبكما ؟

قلنا : جئنا نسألك عن شئ من كلام العرب .

قال : هاتيا. فقلنا : كيف تقول :-

ليس الطيب إلا المسك ـ بالرفع ؟ ـ

فقال : أتأمرانني بالكذب على كبرة سنى ؟ !!

فأين الجادى (الزعفران)، وأين بنة الإبل، وأين كذا وكذا ؟، فقال له خلف : ليس الشراب إلا العسل ـ بالرفع ـ قال : فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم شراب غير هذا التمر .

قال اليزيدى : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ـ

ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها ـ بالرفع فيهما ـ فقال : هذا كلام لا دخل فيه. ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها ـ بالنصب فيهما ـ

فقال اليزيدى : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله، والعمل بها بالرفع فيهما ـ

فقال : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى .

قال اليزيدى : ـ

فكتبنا ما سمعنا منه ثم أتينا أبا المنتجع فأتينا رجلاً يعقل، فقال له خلف : ليس الطيب إلا المسك، فلقناه النصب وجهدنا به فلم ينصب، وأبى إلا الرفع، فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح، فأخرج عيسى خاتمه من يده وقال : ولك الخاتم .

بهذا والله فقت الناس[1] .

* * *

انتهت القصة : وهى ترمز ـ سواء صورت حقيقة ما حدث أم لخصت الصراع اللغوى بين النحاة ـ

نقول : إنها ترمز إلى أنه كان لكل قبيلة عربية نطق خاص يعز عليها غيره، ولا تستطيع سواه لأن ألسنتها لا تجرى إلا به .

* * *

---

(١) ذيل الأمالى ص ٩٣ والمزهر جـ ٢ ص ٢٧٧ .

ومثل (ما) النافية (كم الخبرية) :

فتمييزها منصوب وجوباً فى لهجة تميم .

ومجرور دائماً عند الحجازيين .

وهذا يفسر لنا ذلك الجدل النحوى السلبى حول بيت الفرزدق التميمى :ـ

كم عمة لك يا جرير وخالة

عجفاء قد حلبت على عشارى

فإن من رواه بالنصب لاحظ أن الفرزدق قد تكلم بلغة قومه .

ومن رواه بالجر أراد أن يقول : إن جميع الشعراء من أية قبيلة كانوا يلتزمون النطق بلهجة قريش إيماناً منهم بأنها أفصح اللهجات العربية (١) .

ونحن فى قرننا العشرين نحمد الله سبحانه وتعالى على أن جعل بعض التميميين يلتزمون لحنهم الخاص بهم فى بعض المواقف اللغوية، فلولا هذا الالتزام من جانب هذا البعض ما كنا لنعرف الفرق ـ وقد جئنا بعدهم بخمسة عشر قرناً أو أكثر ـ بين لغة قريش ولهجة تميم .

* * *

من ذلك غير ما مر ـ أن لهجة تميم تنبر الهمزة أى تحققها، وتلتزم النطق بها، يشاركها فى ذلك أكثر البدو، على حين يسهل الحجازيون الهمزة ولا ينبرونها إلا إذا أرادوا محاكاة التميميين استلطافاً لهذه الصفة الحلوة من صفات لهجتهم .

قال أبو زيد : ـ أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون .

ولما نزل القرآن ينبر الهمزة كان ذلك دليلاً قوياً على أن اللغة النموذجية كانت قبل الإسلام قد استحسنت فى هذا الموقف اللغوى لهجة تميم، فاقتبستها واتخذتها صفة من صفات نطقها الفصيح .

---

(١) دراسات فى فقه اللغة ص ٧١ .

لكن الإسلام ـ جرياً على عادته فى التخفيف على القبائل ومراعاة لهجاتها ـ لم يلزم أحداً بتحقيق الهمزة، وإن التزمه هو فى الوحى، فمالت قراءات أكثر الحجازيين إلى التسهيل لا النبر، كما هى الحال فى قراءة نافع، وأبى جعفر، وهما من أشهر قراء المدينة، فإنهما يقرآن :

(وبيس المهاد) و(أصبح فواد أم موسى فارغاً) و(خاسياً وهو حسير) و(وما كان معه من لاه) .

وبعض القراء يغالون فينبرون الألف تقعراً فى الفصاحة، لكنهم مخطئون وقراءاتهم لهذا قراءات شاذة .

قرءوا (ألحمد لله رب العالمين) .

وأكثر من ذلك قرءوا بهمزة مفتوحة فى (كعصف مأكول)، وبهمزة مفتوحة قبل الحرف المشدد فى (ولا ألضالّين) .

يقول العكبرى : وهى لغة مسموعة عن العرب .

والحق أن الذى سمع من العرب فى باب الهمزة على تنوعه ـ تبعاً لتنوع القبائل ولهجاتها ـ لم يكن فيه مثل هذه الصور الشاذة (١) .

ونحن نظلم القرآن حين ندخلها فيه، ونجعلها إحدى قراءاته .

ونثوب إلى الحق من أمر النبر والتسهيل حين نقول :ـ

إن التسهيل رقة، والرقة حضارة .

وإن النبر فصاحة، والفصاحة بداوة، بل جفاوة؛ لأنها تميز وظهور، وهو عمل جسور يستحى منه الحضرى، أو يتواضع له فلا يتمجد به على غيره، بينما يسمح البدوى لنفسه بهذا كله، بل يحرص عليه حرصاً شديداً أكيداً .

ولقد كان ذلك هو الفرق بين قريش المتحضرة، وتميم المتبدية .

وحين جاء القرآن بلغة تميم أو بلهجة تميم وجد أن الحجازيين قد خلطوا تسهيلهم اللين، بنبر تميم الجزل، اصطفاء واختياراً، ثم مهارة وشطارة فنزل بلغة قريش أو بلهجة قريش التى كانت قد استفادتها من تميم .

---

(١) دراسات ص ٧٣ .

وبعبارة أخرى، نزل بلهجة تميم بعد أن كانت قريش قد حازتها .

لكأنه قد أقرهم على صنيعهم، وفى ذلك تزكية لهم، كما أنه تزكية لتميم .

* * *

ومن الفروق بين تميم وقريش .

أن تميماً تميل إلى إدغام المثلين أو الحرفين المتقاربين ،

فالأمر من (غضّ) فى لغة أهل الحجاز (اغضض) بالفك، والقرآن الكريم يقول : «اغضض من صوتك» .

أما التميميون فيقولون : «غض من صوتك» . بالإدغام .

ومن ذلك قول جرير وهو تميمى :-

فغض الطرف إنك من نمير

فلا كعبا بلغت ولا كلاباً

وتميم تقرأ :-«إن تمسكم حسنة» و«من يحلّ عليه غضبى» و«ولا تمنّ تستكثر» وهى جميعاً فى القرآن بلهجة قريش أى مفكوكة الإدغام .

* * *

ومن ذلك أن التميميين لما أرادوا إسكان عين (معهم) كرهوه، فأبدلوا الحرفين حاءين، وقالوا : (محم) وأصلها (محجم) وإنما فعلوا ذلك إيماناً منهم بأنه أسهل من الحرفين المتقاربين[١] .

* * *

وطريقة معالجة تميم لبعض الأفعال والأسماء والحروف - حروف الكلمات - تختلف اختلافاً محسوساً عن طريقة قريش .

ولنوضح ذلك نوزعه على الفقرات الآتية :-

---

(١) المزهر جـ ١ ص ١٩٤ .

ـ ا ـ

إذا فتحت قريش عين الفعل الماضى، فقالت : زهد، حقد، كسرتها تميم غالباً وآثرت أن تقول : ـ زهد حقد .

وإذا ضمت قريش عين المضارع فقالت : يفرغ فروغاً، نجد أن تميماً تفتحها

وتقول : يفرغ فراغاً. ونلاحظ أن مصدرى الفعلين قد اختلفا باختلاف اللهجتين، وهذا يفسر إلى حد كبير الوجوه المتعددة فى الفعل الثلاثى الواحد من ناحية حركة عينه فى صيغتى الماضى والمضارع، فسبب جواز أكثر من وجه فى الفعل الواحد مرده فى الأصل إلى اختلاف اللهجات .

ومن الاختلاف فى الفعل أن قريشاً تقول : ـ

برأت من المرض فأنا براء .

وتميم تقول برئت من المرض فأنا برئ كما هى لغة سائر العرب، واللغتان فى القرآن .

أهل الحجاز : ذأى البقل يذأى .

ولغة نجد ومنها تميم : ذوى يذوى .

(تبادل اللهجات)

أهل الحجاز : قلوت البر وكل شئ يقلى فأنا أقلوه قلوا .

وتميم تقول : قليت البر فأنا أقليه قلياً .

هذا إذا كانوا لا يريدون بمادة (ق . ل . ى) معنى البغض، أما إذا أرادوه فإنهم جميعاً فى التعبير عنه سواء، فيقولون : قليت الرجل فأنا أقليه قلى .

ومنه قوله تعالى «ما ودعك ربك وما قلى» .

* * *

أهل الحجاز : لات الشئ يليته إذا نقصه حقه .

وتميم تقول. ألاته يليته، واللغتان في القرآن :

فمن الأولى قوله تعالى : «لا يلتكم من أعمالكم شيئاً» .

ومن الثانية قوله تعالى : «وما ألتناهم من عملهم من شئ» .

والحجاز : وكدت توكيداً .

وتميم : أكدت تاكيداً [١].

- ٣ -

ومن الاختلاف في الاسم : أن الصيغة الدالة على أسماء الزراعة هي : (فِعال) بكسر الفاء على لغة الحجاز، فتقول : حِصاد، وقِطاف بينما هي (فَعال) بالفتح في لغة تميم .

وقد جاءت بالفتح في قوله تعالى «وآتوا حقه يوم حصاده» .

والحجاز : حِج ومِرية بالكسر فيهما .

وتميم : حج بالفتح، ومرية بالضم .

والحجاز : كراهة .

وتميم : كراهية .

والحجاز : إسوة وقدوة - بالكسر -

وتميم : أسوة وقدوة - بالضم -

واسم الفعل (هلم) عند الحجازين يستوى فيه الواحد والجمع والتذكير والتأنيث .

أما تميم فتلحقه الضمائر وتصرفه تصريف الأفعال :

هلم . هلمى . هلما . هلموا .

والحجاز : أيهات، وتميم : هيهات[٢] .

---

(١) المزهر جـ ٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .
(٢) المزهر جـ ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

وصيغة (فَعال) مبنية على الكسر فى لغة أهل الحجاز، ولكنها عند تميم معربة ممنوعة من الصرف إلا ما كان آخره راء كقولهم (حضار، جعار) .

فإنهم، إلا القليل منهم - يوافقون الحجازيين .

والظرف (منذ) عند الحجازيين هو (مذ) عند تميم يقول أهل الحجاز

(ما رأيته منذ يومين) .

و(ما رأيته منذ يومان) .

وتميم تقول :

(ما رأيته مذ يومين ومذ يومان) .

فيتفقون فى الإعراب ويختلفون فى مذ ومنذ(١) .

ومن أغرب الاختلاف وأعجبه بين هاتين اللهجتين العربيتين :

تذكير الأسماء وتأنيثها

وقد عقد السيوطى فى كتابه (المزهر) باباً لذكر ألفاظ اختلفت فيها لغة الحجاز ولغة تميم قال :-

أهل الحجاز يقولون : هى التمر وهى البر .

وهى الشعير، وهى الذهب، وهى البسر

وتميم تذكّر هذا كله .

هذا ما قاله السيوطى .

ونضيف إليه أن أعضاء جسم الإنسان كالعنق والعضد مؤنثة عند الحجازيين مذكرة عند التميميين، وكذلك الحال فى أسماء الأماكن كالطريق والسوق والصراط والسبيل .

---

(١) المزهر جـ ٢ ص ٢٧٦ .

فبينما يؤنثها الحجازيون، ينكّرها التميميون .

* * *

والواقع أن الاختلاف فى تذكير هذه الألفاظ وتأنيثها لا يخضع للمنطق ولا يمت إلى العقلانية بأية صلة، وأن الخيال السامى الخصب كما يقول المستشرق (رايت Wright) - قد خلع على بعض الأشياء الجامدة سمات الأشخاص الحية، فأنّث بعضها، وذكّر البعض الآخر، تبعاً لتصوره كلا منها .

ونحن نستطيع بمثل هذا التعليل أن نفسر تقسيم المؤنث إلى حقيقى وإلى مجازى .

ففى المجازى تعبير عن شئ مبهم يتعذر تفسيره، لكنه - وقد أشبه فى أذهان الساميين ومعتقدات العرب بوجه خاص ما يكتنف المرأة من سحر وغموض - كان بالتأنيث أجدر منه بالتذكير[١] .

وعلينا فى هذا الموطن أن نذكر - فى غير قليل من الإعجاب - رأى فنسنك Vensinck فى كتابه (بعض ظواهر الجنس فى اللغات السامية) .

فهو ينفى أن تكون علامات التأنيث كالتاء والألف الممدودة والألف المقصورة علامات حقيقية للتأنيث، ويذهب إلى أنها ليست أكثر من علامات للمبالغة، تفيد التكثير، كعلامة وفهامة وصفاً للمفرد المذكر، وقتلى وجرحى، وشهداء وعلماء، وصفاً لبعض الجموع[٢] .

ونحن لا نستبعد هذا الرأى استبعاداً حاداً بل إننا لنستسيغه ونتقبله إذا ما قارناه بما تسيغه العربية الفصحى من صيغ تفيد التأنيث رغم فقدانها كل أمارة دالة عليه، كالحامل والمرضع والعاقر والطالق والثاكل والعانس والكاعب والناهد والعروب .

وصفاً للمرأة .

وكالعاطف والمطفل والخذول .

وصفاً للظبية .

---

(١) من أسرار اللغة للمرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ص ٩٤ .
(٢) دراسات ص ٨٣ .

وكالأمون والحروف والظامر والدلقم (وهى التى تكسر فوها وسال لعابها) .

وصفاً للناقة .

* * *

ويذهب المبرد إلى أن الصفات الدالة على التأنيث من غير علاماته، لا تخضع للمنطق .

وهو يوضح ذلك بطريقتين :-

إحداهما : الإتيان بصفات نعت بها المنكر مع وجود علامات التأنيث بها كغلام يفعة ورجل علامة ونسابة وراوية .

والآخر : التمييز بين ما نعت به المؤنث نعتاً خالصاً لمعنى الوصفية، وما نعت به على معنى الفعلية أى الحدثية .

فمتى أفاد الوصف الحدثية لزمته علامة التأنيث حتى يضارع فعله ويسايره .

نقول : أشدنت الظبية فهى مشدنة .

(الظبية المشدن هى التى معها شادن أى ظبى صحبته أو ولدته) .

وطلقت المرأة فهى طالقة .

ويستدل المبرد على ذلك بقوله تعالى :-

«يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت» فلم يقل كل مرضع بل جاء بالتاء المربوطة(١).

* * *

والمبرد بهذا الذى قاله يميز بين الوصف القائم بالنفس، وبين الحدث العارض الذى هو فعل من أفعال الذات .

وفى تجشمه هذا التعليل المنطقى لعلامة التأنيث فى الآية إيحاء بصعوبة أو بتعذر التعليل فيما سمع من الشواهد الأخرى .

---

(١) الكامل جـ ١ ص ١٣٧ .

ويزداد اقتناع المبرد بتعذر التعليل فى مباحث التذكير والتأنيث حين يعترف بأن من التأنيث ما لا يعلم مصدره، كما أن مما يذكر من الأسماء مالا يعرف لأى مسمى هو (١) .

ومن الأمثلة التى يستشهد بها على ذلك (القتب) وهو واحد الأقتاب أى الأمعاء فهو مذكر .

على حين سلكه ابن قتيبة فى عداد الأسماء المؤنثة وهو لا علامة فيه للتأنيث (٢) .

* * *

ويتكشف لنا مرة أخرى أن علامات التأنيث ليست ذات بال حين نرى أن الأصل فى الأسماء إنما هو تجردها من هذه العلامات، حتى صرح العلماء بأن كل ما لا يعرف : أمذكر هو أم مؤنث فحقه أن يكون مذكراً كجبريل وميكال (٣) .

ونسارع - بعد الذى عرفنا من قلة غناء هذه الأمارات فى الدلالة - إلى قبول تعليل المبرد لتأنيث (الطاغوت) تارة وتذكيره أخرى والطاغوت هو كل ما عبد من دون الله من إنس وجن وغيره. فلقد ذكّره الله تعالى صراحة فى قوله :-

«يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به» .

وأنثه صراحة فى قوله : «والذين اجتنبو الطاغوت أن يعبدوها» .

وجمعه جمع العقلاء فى قوله : «أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات» .

وهو فى الحالات الثلاث يتعين أن يكون اسم جنس، فيفرد على التذكير إذا قصد منه جنسه، ويجمع على التأنيث إذا قصدت منه جماعته، أو على تذكير العقلاء إذا قصد منه أفراده.

* * *

ومن اليسير قياساً على ما مضى - أن نفهم سر التذكير فى قوله تعالى :

«كأنهم أعجاز نخل منقعر» وسر التأنيث فى قوله : «كأنهم أعجاز نخل خاوية» فقد قصد جنس النخل فى التذكير، وأريدت جماعته فى التأنيث، وبكلتا الصيغتين نطقت العرب، وعلى كلتيهما بنت تصرفها فى الكلام .

---

(١) الكامل جـ ١ ص ١٤٠ .

(٢) الكامل جـ ٢ ص ١٣٨ .

(٣) المزهر جـ ٢ ص ٢٢١ .

ومن هنا صح أن يقرءوا بوجهين قوله تعالى : ـ «إن البقر تشابه علينا» .

فمن قصد الجنس، ذكّر يجعل الفعل ماضياً، فقال (تشابه) .

ومن قصد الجماعة أنث بصيغة المضارع (تشابه) بعد حذف إحدى التاءين تخفيفاً، إذ أصله (تتشابه) .

وصح أيضاً أن تقول : (البلدة) فتريد البقعة، و(البلد) فتريد المكان .

* * *

وابن سيده فى كتابه (المخصص) قد لاحظ تردد جمع الجنس بين التذكير والتأنيث فى كلام العرب، وفى القرآن الكريم، فنبه عليه وقال : ـ

فمن التذكير قوله تعالى : «من الشجر الأخضر ناراً» و«جراد منتشر» و«أعجاز نخل منقعر» .

ومن التأنيث قوله تعالى «أعجاز نخل خاوية» وقوله : «وينشئ السحاب الثقال» فى حين أن السحاب مذكر فى قوله تعال : «يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه» .

والأمر أهون مما ظن ابن سيده؛ فما زاد القرآن فى ذكره تلك الألفاظ المتأرجحة بين التذكير والتأنيث على أن أظهرنا على عدم استقرار هذه الألفاظ لدى فصحاء العرب .

ونزوله بالأمرين جميعاً يحفظ لغير لهجة قريش اعتبارها مؤكداً فى الوقت نفسه ضرورة التساهل فى قضية لغوية لا تمت إلى المنطق بصلة .

فليس تأنيث جمع الجنس أو المؤنث المجازى بأولى من تذكيرهما، ولا هناك اعتبارات حقيقية لدى بعض القبائل دون بعض تحمل على تقديم مذهبها وتصويب طريقتها .

ويمكن أن يقال هذا فى عدد لا يستهان به من الفروق بين لغة الحجاز ولهجة تميم وهو مما ورد فى القرآن بكلا الأمرين (١) .

---

(١) دراسات ص ٨٦ ـ ٨٩ .

ـ ٣ ـ

وفى الحروف ـ كما فى الأفعال والأسماء ـ اختلاف بين تميم والحجاز والمقصود بالحروف هنا ـ كما سبق أن قلنا ـ إنما هى حروف الكلمات، وليست الحروف المقابلة للأسماء والأفعال : فالفاء عند الحجازيين هى الثاء عند تميم، قال تعالى فى سورة البقرة (وفومها) على لغة أهل الحجاز، وإنما هو الثوم عند تميم .

واللثام ـ بالثاء ـ عند تميم هو : اللفام ـ بالفاء ـ فى الحجاز .

* * *

وقد نسبت إلى تميم ظاهرة صوتية تسمى (العنعنة) .

وهى قلب الهمزة المبدوء بها عينا كقول ذى الرمة :ـ

أعن ترسمت من خرقاء منزلة

ماء الصبابة من عينيك مسجوم

أراد أأن ترسمت .

ومنها قول الشاعر التميمى :ـ

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتمل

لآخرةٍ لابد عن ستصيرها

أراد : لابد أن .

* * *

ومن الظواهر الصوتية :ـ

الاختلاف بين الصوت الرخو (الظاء) ونظيره الشديد وهو (الضاد)، ونفهم من كتب التراث أن الظاء حجازية، وأن الضاد تميمية .

ويقرب من الاختلاف بين الظاء والضاد الاختلاف بين الطاء والتاء، والصاد والسين، والقاف والكاف .

والتأثر بالحضارة والبداوة مطرد فى أهل الحجاز وتميم .

فكما آثر التميميون الحرف الأشد وهو الضاد على الأخف وهو الظاء، ظلوا على عادة البدو يجنحون إلى التفخيم، ففضلوا الطاء على التاء وقالوا : أفلطنى الرجل إفلاطاً، بدلاً من أفلتنى إفلاتاً .

وقالوا : فحصط برجلك يريدون فحصتَ برجلك، وفضلوا الصاد على السين فقالوا. شمر عن صاقه بدلاً من شمر عن ساقه، كما فضلوا القاف على الكاف فقالوا : قشط .

وقريش تقول : كشط .

ولقد أدرك علماء اللغة ما فى ضروب الإبدال هذه من تنوع اللهجات، فلم يفسرها المحققون منهم بالمصادفة والاتفاق، ولا بتعمد العرب تعويض حرف من حروف، إنما هى لهجات مختلفة لمعان متفقة :

تتقارب اللفظتان فى لهجتين لمعنى واحد حتى إنهما لا تختلفان إلا فى حرف واحد.

والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طوراً مهموزة وطوراً مسهلة، ولا بالصاد مرة، وبالسين أخرى، ولا بأن مرة، وبعن أخرى[1] .

لا تشترك العرب فى شئ من ذلك، إنما يقول هذا قوم، وذاك آخرون . على أننا نلاحظ فى الشواهد التى سقناها وفى غيرها أن تميماً فى الأعم الأغلب تجنح إلى الأشد الأفخم لأنها بدوية، وأن قريشاً فى الأعم الأغلب أيضاً تختار الأرق الأنعم، لأنها حضرية .

من ذلك ما لوحظ من حرص التميميين على الضم لخشونته على حين يحرص الحجازيون على الكسر لرقته :

تميم تقول : رضوان (بضم الراء) .

والحجاز تقول رضوان (بكسرها) .

---

(١) المخصص جـ ١٣ ص ٢٧٠ والمزهر جـ ١ ص ٤٦٠ .

وجمهور تميم يقول (أمسُ) بالتزام ضم السين .

أما الحجازيون فيقولون (أمس) بالبناء على الكسر[١] .

* * *

هذه خلاصة الفوارق الرئيسية بين لهجة تميم ولغة قريش .

رأينا من خلال عرضها أننا من تميم أمام لهجة خاصة قائمة بذاتها، لها خصائصها ومميزاتها .

وواضح أنها قد أمدت العربية الفصحى بروافد غنية غزيرة ساعدت على استقرار نحوها وصرفها وسعة اشتقاقها وبُعد دلالاتها. وانبساط مدرجها الصوتى وحياة عدد كبير من مفرداتها.

ونحن نحمد لها صنيعها منوهين بأنها لم تكن وحدها، وإنما كانت معها لهجات أخرى لقبائل أخرى، لكن هذه اللهجات الصحيحة المسموعة عن العرب، قد آلت بالفصحى إلى ضرب من التوحد فى الخصائص والتماثل فى السمات والملامح .

لكأن هذه اللهجات ـ وهى فى طريقها إلى التلاقى والتقارب ـ جداول تجرى رخاء فى مسالكها، لتنتهى إلى الانصباب فى نهر العربية العذب .

وفى محيطها الواسع .

* * *

---

(١) دراسات ص ٩٨ ـ ١٠٥ .

هنوات اللهجات

هذا الموضوع غير بعيد عن سابقه، فلاشك أن هنوات اللهجات مما ترسب لدى أصحابها فى بيئاتهم يستخدمونه فيما بينهم، ولا يستخدمونه عند التقائهم بغيرهم فى الأسواق أو فى موسم الحج .

ومعلوم أن لكل لهجة - عدا القرشية - هنة أو أكثر وقد اشتهر من هذه الهنوات مايأتى:-

١ - عجعجة قضاعة :

وهى تحويل الياء جيما إذا وقعت بعد العين، فيقولون :

الراعج خرج معج، بدلاً من الراعى خرج معى .

٢ - غمغمة قضاعة :

وهى عدم تميز حروف الكلمات فى أثناء الكلام .

٣ - شنشنة اليمن :

وهى جعل الكاف شينًا مطلقاً مثل : لبيش وشلمنى فى : لبيك وكلمنى .

٤ - وتم اليمن :

وهو جعل السين تاءً فيقولون :

(النات) بدلاً من (الناس) .

٥ - طمطانية حمير :

وهى جعل (أم) بدل (أل) فيقولون : (طاب امهواء) فى (طاب الهواء) .

و(ليس من امبرامصيام فى امسفر) بدلاً من (ليس من البر الصيام فى السفر) .

٦ - تلتلة بهراء :

وهى كسر أحرف المضارعة مطلقاً، وبهراء بطن من قضاعة، هذا ماقاله علماء اللغة .

أما نحن فقد وجدنا هذه الظاهرة عند تميم، وقد مر وصف سيبويه لها بأنها القياس، وبأنها لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز .

وعلى هذا فليست هنة بل لهجة، وكانت جديرة بأن تكون لغة .

وإنها لكذلك فى لغتنا وعلى ألسنتنا نحن المصريين .

٧ - فحفحة هذيل :

وهى جعل الحاء عيناً مثل :

العسن أخو العسين فى الحسن أخو الحسين .

٨ - عنعنة تميم :

وقد سبقت .

٩ - كشكشة أسد أو ربيعة :

وهى إبدال الشين من كاف الخطاب مثل عليش فى عليك .

أو هى زيادة شين بعد الكاف المكسورة مثل عليكش فى عليكِ .

١٠ - وهم كلب :

وهو كسر هاء الغائب إذا وليهاميم الجمع فيقولون : منهِم وعنهِم وبينهِم .

١١ - وكم ربيعة :

وهو كسر كاف الخطاب فى الجمع مثل عليكم وبكم .

١٢ - لخلخانة الشحر وعمان - كقولهم : -

(ما شا اللّه) فى (ما شاء اللّه) .

١٣ - قطعة طيئ :

وهى حذف آخر الكلمة كقولهم :

يا أبا الحكا يريدون : يا أبا الحكم .

وهذه (القطعة) موجودة فى لغة بنى سويف وشمالى محافظتى الغربية والبحيرة، ولعلها كانت النواة لما عرف فى كتب النحاة : بالمنادى المرخم .

١٤ - استنطاء سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار :-

وهو جعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء مثل (أنطى) فى (أعطى) .

١٥ - النقص :

وهو حذف نون (من) مثل :

(خرجت ملبيت) فى (خرجت من البيت) وهى لهجة دارجة فى مصر حالياً .

١٦ - كسكسة تميم :-

وهى إلحاقهم بكاف المؤنث سيناً عند الوقف، يقولون :-

أكرمتكس وبكس .

فى أكرمتكِ وبكِ [١] .

* * *

---

(١) انظر القاموس المحيط جـ ٢ ص ٢٤٦ والوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص ١٤ - ١٥ ولهجات العرب لأحمد تيمور باشا (المكتبة الثقافية) ودراسات فى فقه اللغة ص ٦٠ - ٦٣ واللهجات العربية ص ١٤٠ .

فوائد لغــوية

ـ ١ ـ

كنا ـ إلى عهد قريب ـ نسمع عن (الملامصطفى البرازانى) الذى كان زعيماً للأكراد فى العراق الشقيق .

وواضح أن كلمة (ملا) لقب للتمجيد .

فما معناه ؟

معناه : أن (الملا) أصلها (المولى)، قلبت الواو لاماً، وأدغمت اللام التى أصلها واو فى اللام الأصلية فصارت (الملا) .

ـ ٢ ـ

طرب : معناها : فرح، ومعناها حزن .

ويفهم المعنى المراد بها من سياقها .

المأتم : مجتمع الرجال والنساء فى التهانى أو التعازى .

شيع : ودع مطلقاً، ولو أن الصحافة لم تعد تستعملها إلا فى تشييع الموتى إلى مثواهم الأخير .

وبهذا التطوير صارت (شيع)

حقيقة لغوية فى التوديع مطلقاً .

وحقيقة عرفية فى توديع الموتى .

الأربع : أحد أيام الأسبوع .

وهذه التسمية صحيحة، فقد وردت فى حديث للنبى صلى الله عليه وسلم، وكذلك (ا [illegible]

بتثليث الباء .

- ٣ -

قال الشاعر :-

يا حبُّ ليلى لا تغير وازدد

وانم كما ينمى الخضاب فى اليد

قال الكسائى :- نما الشئ ينمى بالياء لا غير .

قال : ولم أسمعه بالواو إلا من أخوين فى بنى سليم قالا : (ينمو) .

ثم سألت عنه بنى تميم، فلم يعرفوه بالواو .

- ٤ -

تقول : مشيت حتى أعييت بالألف، ولا تقول : عييت. إنما يقال فى الأمر الذى ينسد عليك (عييت) .

وقد وقع الكسائى نفسه فى هذا اللحن ذات مره َفعُيِّر به، وكان ذلك سبباً فى تبحره فى النحو :

روى الفراء أن الكسائى إنما تعلم النحو على الكبر

وكان سبب تعلمه له أنه جاء يوماً وقد مشى حتى أعيا، فجلس إلى قوم فيهم فضل أى أهل علم

وكان يجالسهم كثيراً، فقال : قد عييت .

فقالوا : أتجالسنا وأنت تلحن ؟ فقال : كيف لحنت ؟ .

قالوا له : إن كنت أردت من التعب فقل : أعييت، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير فى الأمر فقل : عييت .

قالوا : فأنف من ذلك ثم قام من فوره وسأل عمن يعلم النحو .

- ٥ -

تقول : اقرأ عليه السلام، ولا تقول : اقرئه السلام فالأولى صواب، والثانية خطأ .

ويظهر - والله أعلم - أن معنى : أقرئه السلام .

اجعله يقرأ السلام، وليس ذلك مراداً للمتكلم بالطبع .

- ٦ -

المثل العربي يقول : (إذا عز أخوك فُهن) .

هكذا نقرؤها أى بضم الهاء .

والأحسن أن نقرأها بكسرها (فهِن) من هان يهين إذا لان، ومنه قيل هين لين .

أما (هُن) فمن : هان يهون أى ذل يذل، من الهوان، والعربى لا يحب الهوان فلا يأمر به .

- ٧ -

يقولون : (فهرسة الكتب)، يجعلون التاء فيه للتأنيث، ويقفون عليه بالهاء .

وقال بعض علماء اللغة : الصواب (فهرَستْ) بإسكان السين والتاء فيه أصلية .

ومعنى (الفهرست) : جملة العدد .

وهو لفظ فارسى معرب .

واستعمل الناس منه فهرس الكتب يفهرسها فهرسة مثل : دحرج يدحرج دحرجة .

فقولهم : (الفهرست) اسم جملة العدد، و(الفهرسة) : المصدر .

* * *

- ٨ -

تتطور دلالة الكلمات ويكون هذا التطور تارة :

(أ) بتعميم تلك الدلالة، وتارة .

(ب) بتخصيصها، وتارة ثالثة :

(جـ) بانتقال الدلالة إلى شئ مخالف تماماً .

* * *

فمن أمثلة النوع الأول .

استعمال كلمة (بلاط) للبيت المحصن البناء، وهى فى الأصل للحجارة المفروشة بالأرض .

واستعمال كلمة (الاستحمام) لغسل الجسم بالماء الحار والبارد .

وهى فى الأصل للغسل بالماء الحار خاصة .

أما الاستحمام بالماء البارد فيسمى (الابتراد) و(الاقترار) .

ومن تعميم الدلالة، إطلاقهم (الأتراب) على الذكور والإناث، وليس كذلك، إنما (الأتراب) الإناث خاصة .

لا يقال : محمد ترب مصطفى، وإنما يقال : قرنه ولدته .

* * *

ومن أمثلة النوع الثانى .

استعمال كلمة (الوادى) للنهر خاصة، وهو فى الأصل لكل بطن مطمئن من الأرض .

واستعمال كلمة (الريحان) للآس خاصة دون سائر الرياحين، وهو فى الأصل لكل نبت طيب الريح .

واستعمال كلمة (اللحاف) للغطاء الذى يكون على الأسرة خاصة، وهو فى الأصل لكل ما التحف به من ثوب أورداء أو كساء، فى حالة قيام أو قعود أو اضطجاع .

ومن أمثلة النوع الثالث .

كلمة (وشاح) للثوب، وأصله نظمان من لؤلؤ يخالف بينهما، ويعطف أحدهما على الآخر، وتتوشح به المرأة على كشحها .

واستعمال كلمة (القلادة) للحزام، وهى فى الأصل للعقد الذى يلبس فى العنق .

ـ ٩ ـ

من اتسع فى كلام العرب ولغتها لم يكد يلحن أحداً .

ولذلك قال بعض علماء اللغة : أنحى الناس من لم يلحن أحداً .

وقال الخليل رحمه الله : لغة العرب أكبر من أن يلحن فيها متكلم .

وروى الفراء أن الكسائى قال :ـ

على ما سمعت من كلام العرب، ليس أحد يلحن إلا القليل(١) .

وهذه الفائدة فائدة مهمة، لأنها داعية إلى حلم المدرسين وبخاصة أساتذة اللغة العربية فى مختلف المراحل التعليمية إزاء ما يرونه ـ ضربة لازب ـ خروجاً على القواعد اللغوية .

وبهذه المناسبة تحضرنى كلمة قيمة للدكتور مراد كامل قال :ـ

نحن ننافق اللغة ونخدعها عن نفسها حين نخلع عليها قداسة زائفة تجمد بها عن التطور وتعوقها عن الانطلاق، وحينما نلقنها لهذا الجيل وللأجيال المقبلة بوضعها المتحجر، ونحذرهم من أن يتجاوزوا حدودها .

* * *

أجل فاللغة كما قال هو ـ مرة ثانية ـ لا توجد خارج أهلها الذين يفكرون بها، بل إن جذورها متأصلة فى أعماق الضمير الفردى حيث تستمد قوتها لتورق وتزدهر على شفاه الناس(٢).

---

(١) لحن العامة والتطور اللغوى للدكتور رمضان عبد التواب ص ٢٢٣ الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ .

(٢) اللغة العربية كائن حى لجرجى زيدان ص ٨ طبعة دار الهلال .

طرائف لغوية

- ١ -

بكالوريوس

من العلماء والباحثين من ينصرفون إلى تتبع أصول الكلمات وردها إلى منبعها الأول مهما تعدت الكلمة عن ساحتها الأولى، وهاجرت وانصرفت عن لغتها الأصلية ،

* * *

رفى جامعة ليدز البريطانية اتفق الباحث المصرى د. رفعت عبيد مع زميله فى الدراسات السامية م. ج. يونج على تعقب أصل كلمة (بكالريوس) .

وهى الإجازة الجامعية الأولى التى تهديها أى كلية بمثابة ليسانس التخرج، وتجيز جامعات أوربا ابتداء من القرن الثالث عشر لمن يحمل هذا اللقب العلمى حق نقل العلم إلى غيره، كما تلقاه ممن سبقه .

وبعد البحث والتقصى عثر رفعت ويونج على أصل التعبير فوجداه عربياً، واستندا إلى أن أول من فاز باللقب الجامعى للإجازة (بكالوريوس) كان من جامعة باريس سنة ١٢٣١م .

وعادا بالدراسة إلى أن الكلمة مشتقة من التعبير العربى للإجازة، وهو كما جاء فى كتاب (سقط الزند) لأبى العلاء المعرى (بحق الرواية) .

ثم تتبعا تحرك التعبير عبر الزمان واللغات الدارجة حتى وصل إلى اللاتينية محرفاً بعد أن تآكلت منه الحاء، وطريت القاف فتحولت إلى كاف، وبعدها شبكت فى (الرواية) التى تحركت وتقدمت فيها الياء عن نهاية موضعها لتضاف السين بديلاً عنها، فأصبحت (بكالوريوس) .

وهو النطق الأوربى الحالى لها .

ويستأنس الباحثان من أجل تأصيل هذا التحويل بالكلمات العربية :

(صك) التى أصبحت (شيك) و(تعريفة) التى تحولت إلى (تاريف) ثم (دار الصناعة) التى ينطقونها الآن فى أوربا (ترسانة) أو (آرسنال) (١) .

---

(١) أهرام ٢١ / ٤ / ١٩٧٦ .

- ٢ -

(وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) :

حمل الجبائى النظر فى الآية الكريمة على معنى الانتظار .

وجعل (إلى) اسماً بمعنى النعمة، مفرد الآلاء، مضافاً إلى ما بعده، لا حرف جر .

والمعنى عنده (منتظرة نعمة ربها) .

ف (إلى) عنده مفعول بناظرة [١] .

- ٣ -

كُلثــــوم

كان المرحوم عباس العقاد - تقديراً منه لأم كُلثوم وفنها الرفيع - قد بحث فى القواميس العربية عن معنى كلمة (كلثوم) فوجد أنها تعنى - ضمن ما تعنى - الحرير على رأس العلم .

* * *

وقد قال فيها العقاد هذه الأبيات، وهى أحسن ما نختم به هذا الكتاب فى المنصورة حاضرة (طماى الزهايرة) .

مسقط رأس أم كلثوم :-

رددى الطرف فى الفضاء وما أرحب الفضاء

وأســأليه ســؤال من يرسـل الطهر فى الهـواء

هل سرى فيه مثل صوتك فى الحسن والنقاء [٢]

---

(١) عقيدة أهل التوحيد الكبرى (السنوسية) للإمام أبى عبد الله محمد بن يوسف السنوسى الحسنى القسم الثالث ص ١٢٦ طبعة سنة ١٩٧٣ .

(٢) أهرام ٦ / ٢ / ١٩٧٥ .

خاتمة

هذه العجالة اللغوية قائمة على افتراض أن قارئها خالى الذهن منها :-

وقد جاءت لذلك :

سريعة فى عرضها .

متواضعة فى مضمونها .

تمتاز بالبساطة والوضوح .

وبقلة التفريعات .

* * *

وإذا كانت فى حاجة إلى تفصيل أو تكميل

فإننى أترك ذلك لمن هو أقدر عليه منى

أما أنا :

فقد أسهمت بما استطعت .

والحمد لله ،

د. عبده قلقيله

المصادر والمراجع

انتفعت فى إعداد هذا الكتاب بعدد من المصادر والمراجع .

وهى مثبتة فى أماكنها منه .

كتب للمؤلف

١ ـ خط سير الأدب العربى : الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة .

دار الفكر العربى ١٩٩١ ط (٢) .

٢ ـ لغويات : الطبعة الثانية ط ١٩٩٠ دار الفكر العربى .

٣ ـ البلاغة الاصطلاحية : دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٨٧ ط (١) .

و١٩٩١ ط (٢) .

٤ ـ النقد الأدبى فى العصر المملوكى : الانجلو المصرية ١٩٧٢ ط (١) .

وتحت الطبع فى نادى أبها بالمملكة العربية السعودية ط (٢) .

٥ ـ النقد الأدبى فى المغرب العربى : الأنجلو المصرية ١٩٧٣ ط (١) .

والهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ ط (٢) .

٦ ـ القاضى الجرجانى والنقد الأدبى : الهيئة المصرية العامة للكتاب ط (١).

١٩٧٣ والانجلو المصرية ط (٢) :

أ ـ القاضى الجرجانى على بن عبد العزيز ١٩٧٤ .

ب ـ النقد الأدبى عند القاضى الجرجانى ١٩٧٦ .

والهيئة المصرية العامة للكتاب ط (٣) ١٩٩٠ .

٧ ـ مقالات فى التربية واللغة والبلاغة والنقد : الانجلو المصرية ١٩٧٤ .

٨ ـ نقد النقد فى التراث العربى : الأنجلو المصرية ١٩٧٥ ط (١) .

وتحت الطبع فى دار الصافى للثقافة والنشر بالرياض ط (٢) .

٩ ـ من التراث الأدبى للمغرب العربى : عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٩ ط (١) .

ودار أمية للنشر والتوزيع بالرياض ١٩٨٥ ط (٢) .

١٠ـ دراسات فى النقد الأدبى والبلاغة : دار العلوم بالرياض ١٩٨٠ ط (١) .

ودار الفكر العربى ١٩٩٠ ط (٢) .

١١ـ أبيات المعانى فى شعر المتنبى : الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٩٨٣م .

١٢ـ البلاط الأدبى للمعز بن باديس : المجلس العلمى بجامعة الملك سعود بالرياض ١٩٨٣ .

١٣ـ المقنع فى أن «هدى كامل المبرد» ليس «الممتع» :

دار الرياض للنشر والتوزيع ١٩٨٤ .

١٤ـ التجربة الشعرية عند ابن المقرب : مضمونها وبناؤها الفنى :

النادى الأدبى بالرياض ١٩٨٦ .

١٥ـ مساجلات : الأنجلو المصرية ١٩٩٠ .

١٦ـ «معجم البلاغة العربية» : نقد ونقض : دار الصافى للثقافة والنشر المملكة العربية السعودية ١٩٩٠ .

الفهرســـت

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع	٨٨٨٤ / ١٩٩٠
الترقيم الدولى I. S. B. N	977 - 10 - 0415 - 8



